الأعمال
الفكرية

كامل زهيري

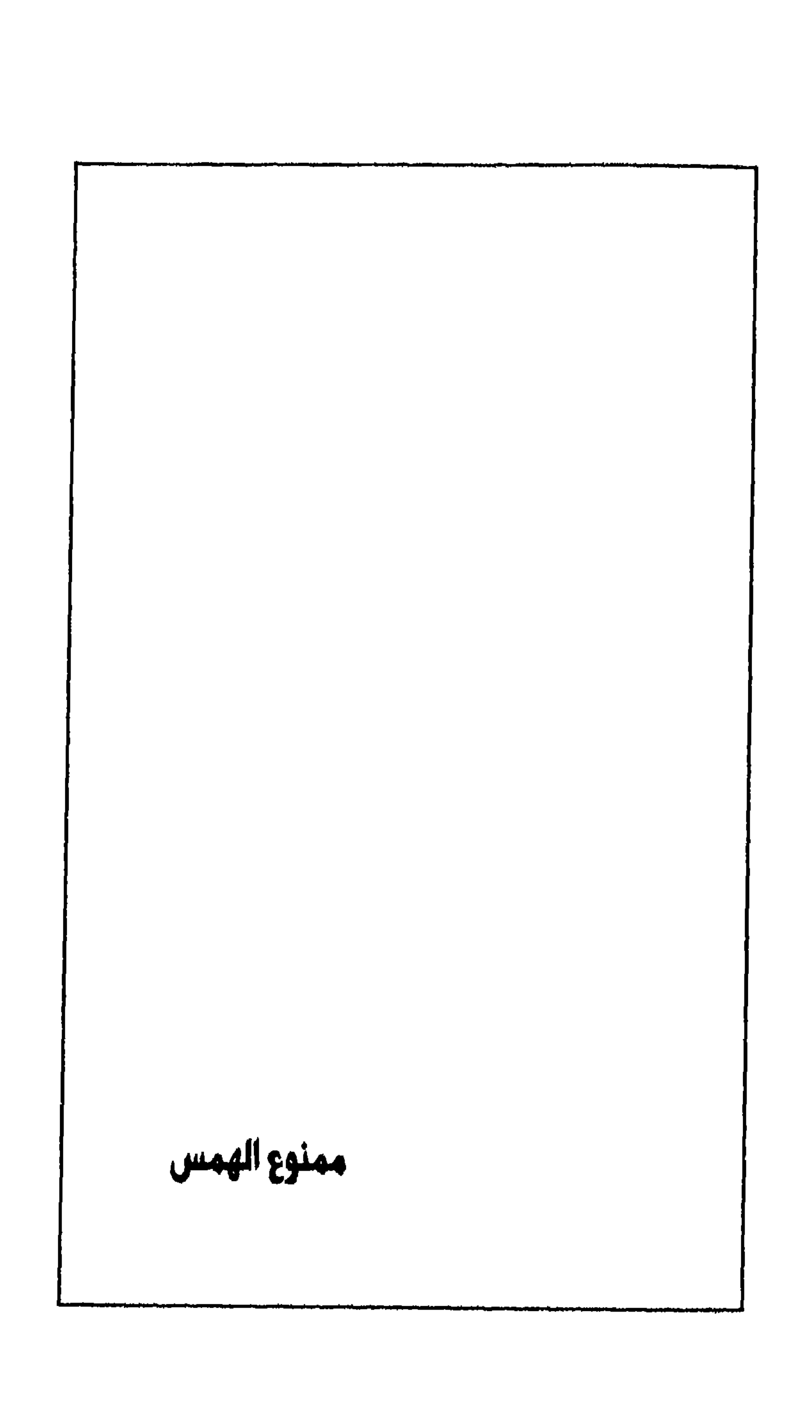
ممنوع الهمس

الهيئة المصرية العامة للكتاب

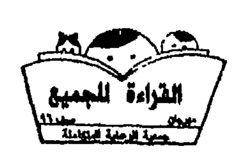
١٩٩٦

مهرجان القراءة للجميع





ممنوع الهمس



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

ممنوع الهمس
كامل زهيرى

الغلاف
للفنان جمال قطب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

المشرف العام
د. سمير سرحان

ممنوع الهمس

كامل زهيرى

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما انتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

كلمـــة

تقلبت بين بلاد العـالم العـديدة. لأننى أحب السـفـر دائمـاً. وأحب الناس جميعاً.

أعشق الحوار والحديث مع الآخرين.

ولكننى كنت أسأل نفسى دائماً لماذا أدمنت السفر؟

هل لأننى أحب أن أقطع أوصال ما يستقر فى نفسى من عادات، ومن علاقات؟ بحثاً عن الجديد!

هل لأننى لا أطيق الحب المستديم، والرابطة الخانقة؟ وهل فى هذا شذوذ؟.. وجنوح؟

هل هو القلق المستبد أم الشوق دائماً إلى جديد!..

هل هى رغبة فى أن احب، وأن أبتعد، ثم أحب، وان أعود. لون من اللعب بالفراق.

وأصبحت أتذوق الأسفار.

واكتسبت مراناً.

ففى كل مدينة فى العالم، أحياء قديمة، وأحياء جديدة، وكثيراً ما ينتخب الأغنياء أنظف الأماكن، وأصحها، وأشمسها، وأهواها، ولم أجد استثناء واحداً بين الشرق والغرب. فالأغنياء يسورون بيوتهم، ويفتحون نوافذهاعلى الشرق والشمال، للشمس والهواء. ويزرعون الحدائق، ويفرشون المداخل بالطنافس، وقد يعوى كلب للحراسة على الضيف الغريب.

وفى كل مدينة أيضاً أحياء فقيرةوحوارى ضيقة، وبيوت متداعية، وزحام شديد، وأطفال عديدون.

نفس القصة .

محطة السكة الحديد.. وسط المدينة. حولها الشوارع العتيقة، بلا استثناء والفنادق الرخيصة، والبيوت القدمة، وأحياناً المطاعم القذرة ومنازل الحب المباح.

والسوق، إلى جوار المحطة، أو فى وسط المدينة. وأروع الأسواق هو سوق الخضار فى الفجر. رائحة فياحة. ونشاط نظيف.

والكنيسة كذلك. تختار موقعاً سيكولوجياً هائلاً، على الدوام.

المكان المرتفع .

فلا تجد ذروة جبل، أو قمة تل، إلا وعليها بناء دينى.

وكثيراً ما تمتعت بالتجوال ـ بلا برنامج ـ فى المدن أقف عند منظر غير مألوف.

عند تمثال قديم. أحدث المثال دون أن أقابله. أنزع حديقة عامة، فأحب الأماكن إلى هذه الأماكن التى لا يقفل فيها باب الدخول، ولا باب الخروج.

وكثيراً ما يدور حوار صامت بينى وبين مبنى قديم، أو كوبرى صغير، أو رصيف طويل.

وأصبحت لا أرى المدن ببيوتها وعماراتها.

ولكننى أحس أن للعمارات وفن العمارة تاريخاً وشخصية وكلاماً.

.. وأستمع إلى كلمات الحجارة.

«صوت الصمت» كما يقول مالرو.

وكثيراً ما يمر فى ذهنى هذا الخاطر الغريب ـ وهو ليس بالغريب تماماً:

ـ يمر الناس وتبقى الحجارة.

وهنا ينكسر قلبى، كما ينكسر رغيف جاف.

لكنها هي الحياة. تأخذها أو تدعها.

لازالت أطياف من سذاجة الطفل ـ راسبة فى قلبى ـ تطوف فى ذهنى وتلح :

ـ نعم يمر الناس، وتبقى الحجارة!

وكثيراً ما وقفت عند تفصيل دقيق مما أراه. فاذا به يكبر كأننى القيت حجراً فى جوفى. فتتداح ذكريات وخواطر.. وأطياف أحزان.

فقد تعلمت من الأسفار درساً.

إن الظواهر تخدع البصر والقلب.

ووراء كل الأحجار والمبانى والخضرة والمياه هناك البشر.

ولكل إنسان قصة وحكاية.

لو كتبناها لخرج الأدب عن كل ما نعرفه عن الأدب.

ففى الناس أقاصيص طويلة، وحكايات كالليالى المتوالية المتعاقبة. وكل قلب فيه أحراش وأعشاب.

وهكذا تمنيت أن أعرف الناس على طبيعتهم، وسجيتهم. سيان عندى اللهو أو العبادة، فيهما صورة الانسان.

وكم وقفت أطل على المدن، فلا أرى على البعد إلا بصيصاً من النور، خافتاً يكاد يخنقه أو يزيحه الظلام. وكم تخليت أن حول هذا الضوء المرتعش أيضاً بشر يعيشون، لهم أحلام وأحزان ومشاريع وثرثرات وهبات وغضبات وحماقات..

وكثيراً ما ترفقت فى الحكم على الناس أو تباطأت فى القسوة عليهم..

لا أريد أن أدوس هذا الضوء البسيط بالأقدام، فقد يكون هذا البصيص الصغير بشر. اناس وأطفال ونساء وفتيات وحصوة ملح وجرعة ماء.

وأصبحت بعد حين، لا أعبأ بالميدان والحجر والمبنى.

فهناك البشر على الدوام..

قد يطربنى طفل يتلوى قصداً فى مشيته، أو صغيرة فى ضفيرة، أو عجوز على عصا، أو رائعة الحسن تمشى على الأرض كالأثير طرباً وخيلاء.

وبدأت أبحث عن الأيدى الخشنة المعروفة.. والأيدى الملوثة بالطلاء والزيت والشحوم وطين الزرع ودهان الحيطان.

نعم ...

فالحياة هى البشر.

وليست شيئاً سواهم ..

نيويورك

مدينة السكتة القلبية

نيويورك صاخبة، مرحة بلا مناسبة، غاضبة بلا سبب، بيوتها من زجاج، أعمدتها حديد، تسافر فيها إلى أعلى: فى الأسانسير. وترتفع فى لمح البصر، من الأرض إلى الطابق المائة والخمسين. الذين يركبون يبلعون لعابهم، حتى يقاوموا ضغط السرعة على آذانهم، والذين ينزلون كأنهم يهبطون «أخلاقياً».. فالهبوط الأخلاقى هو المهبط الحقيقى!

ونيويورك تهتز وتتحرك ..

كنيدى يجلس على كرسى هزاز. البارات معتمة أو خافتة، الضوء كالشمع، والصوت همس، ولكن العلامات مضيئة، تتحرك، ولا تتركك تسرح، لابد أن تحلم واقفاً.ـم وأن تتحدث قبل أن تفكر..

يتحدثون ويشربون بسرعة. الطبق يقدم اليك، ويؤخذ منك قبل أن تأكله، والقهوة تقدم مع الأكل، لا يوجد «قبل الأكل» «وبعد الأكل». يوجد أكل فقط، أكل.. أكل. مضغ.. مضغ.. مضغ. وقد يمضغون لا

شيء.. اسمه عندهم اللبان. يتحدثون بسرعة، وتعجب كيف يفكرون ومتى؟

المفكر يفكر بسرعة المنولوجست، قال لي مخرج مسرحي ان إعداد مسرحية لشكسبير يستغرق ثلاثة أعوام، حتى يتعلم الممثل الامريكي كيف يوازن ويوفق بين سرعته العادية ونغم شكسبير البطيء.

ولا تجد في نيويورك طفلاً يدبدب، ولا شيخاً يدب، ولا عصفوراً يزقزق، لأن السرعة تخيف الطفل والشيخ والعصفور.

وهي مدينة السكتة القلبية.

الرجل لا يموت على سريره. في وسط مكتبه، أو على حافة الرصيف.

أهم الحوادث هي الحريق.

كل شيء يحترق. يمتص الأعصاب.. ويحرقها. ويحترق.

صوت عربات البوليس يصرخ. صوت عربات المطافيء يعوي. نيويورك صاخبة، مرحة بلا مناسبة، غاضبة بلا سبب، وكل شيء له ضجة، مثل ضجة المسمار الكهربائي.. ما عدا الانسان، الذي يتزحلق. يحمله سلم كهربائي. وتنقله عربة. وتستقبله شاشة تلفزيون. ويحدث زوجته أو حبيبته بالتلفون.

كل شيء «تمكنك» بفتح التاء والميم.. من [illegible] الماكينة.

إذا أطل الرجل من النافذة لن يرى السماء، ولن يشهد الأرض،

سيرى نافذة جاره. منذ سنوات يعيشان معاً، ولم يقرئه السلام. ولو حدث فهو أقل سلام فى العالم. فالسلام فى أمريكا حرفان: هاى! وهو اختصار لكلمة واحدة هى: هالو!

ناطحات السحاب جميلة من الخارج، لأنها نظيفة قاطعة كحد الموسى. تلمع لأنها من الصلب الابيض. زجاجها كالمرآة.. حجارتها تلمع كالزجاج. ولكنك تحس ان ناطحات السحاب ليست لها جذور فى الأرض.

إنها مجرد كميات هائلة من الحجارة أو الحديد والصفيح والزجاج. كومت بعضها على بعض، فوق سطح الأرض.

الفرق بين أى بيت فى الخارج: فى أوروبا وآسيا وعندنا، أن بيوتنا لها جذور فى الأرض كجذور الشجرة، وأحياناً كجذور الأزهار داخل الأرض. بيوتنا ضعيفة ضعف الانسان. مائلة.. ليست قاطعة كالسيف. إنها خطوط تقريباً.

ولكن العمارات فى نيويورك حديد على اسفلت.

والشوارع أرقام: الشارع ٩٠، والشارع ٤٢، والشارع ١٣ لا تعرف بأسماء العظماء أو الأدباء أو العلماء.

وهذا وحده يؤكد الطابع التجريدى فى البناء والأسماء.. والحياة.. ويشعرك بالغربة..

فكيف تحب رقماً؟

ولا أحد على نواصى الشوارع. لو وقفت على الناصية، تقاذفتك المارة، وأزعجتك الحركة. فتهرب إلى داخل مكان.

والهواء عاطن. ساخن بارد فاسد. مكيف، البار به تكييف هواء ساخن. وفى الركن مروحة كهربائية باردة. الكهرباء فى كل شئ حتى الشمس!

ولا تبحث عن الشمس فى نيويورك. فكيف تصل إليك، وتخترق كل هذه الحجارة العالية؟

ولا تبحث عن الهواء أو الشيخ أو العصفور..

فكل من يعيش فى نيويورك متوسط العمر. فى العنفوان. الرجل طويل. أنيق. حليق، شعره نظيف. أسنانه لامعة. منذ عشرين عاماً أو يزيد، يطيع أوامر مصانع جيليت.. وفرشاة الأسنان «المفضلة» كولجيت! فى عينيه شرارة القلق. وفى خطاه ثبات المقامر، ولكنك تلمح ذبولاً تحت العينين. وحزناً فى التجاعيد.. لا تمحوه مياه الكولونيا ولا تضيئه مستحضرات التجميل!

والمرأة شابة دائماًنحيفه. تنفجر بالحيوية.. بيضاء.. قصت شعرها.. ونفشته، أو صبغته.. الروج مسبوك. والكحل محبوك. وكله طراز واحد من هوليوود. الثياب الداخلية قليلة، رقيقة. هفهافة. تدرك ذلك بسهولة. لأن الثوب الخارجى ينسدل على الجسد بلا «كلا كيع» أو مبالغات!.

أغلبهن سكرتيرات في مكاتب. وعند رجال أعمال. ثقافتهن من مجلة «المختار» وغذاؤهن الغالب السندويش، وشرابهن المفضل الشمبانيا. تسألك عن مركزك بعد اسمك.. وأحياناً قبل أن تبدأها الكلام!

وأروع ما فى فتاة نيويورك: اجادة السذاجة وصناعة الابتسام وأغرب ما فيها كثرة التدخين حتى فى الشوارع.

فاذا أقدم يوم السبت ماتت المدينة.

والجميع يتمتعون بعطلة نهاية الاسبوع خارج المدينة. يشمون هواء الله لأول مرة منذ خمسة أيام. ولعلهم ينامون فى بيوتهم عل السرير لأول مرة. لأنهم كانوا ينامون فى الأيام السابقة وهم واقفون. فقد كان كل شيء يتحرك كمروحة الطائرة. وكان الرجال يجرون كخيول السباق التى حقنت حنقاً صناعية حتى تنشط وتكسب السباق الكبير. وبعد السباق ترتمى على الأرض لاهثة بل حراك.

والسباق الكبير جائزته فى نيويورك البقاء فى نيويورك!

هارلم

النظرة عندنا، بعدها ابتسام ولقاء.

ولكن النظرة بين البيض والسود مختلفة.. إنها قتال بمسدسات مكتومة الصوت. وقد تذكرت ما كتبه سارتر عن النظرة من أنها تحمل معنى العداء.. فالحنان مستبعد. والقتال مستحب. والنظرة كوبرى معلق لا يصل إلى شىء!

إنت شىء آخر غيرى ..

والكارثة اننى لا استطيع ان اعرفك اللقاء مستحيل.. لأن الجليد العاطفى يتساقط بينى وبينك.. على التو، وبمجرد النظر..

إنها حرب أهلية باردة بلا دم، ولا قتال..

وذهبت إلى هارلم، حى الزنوج فى نيويورك.

وهارلم كانت فى الأصل حياً أبيض، يسكنه البيض.. وهو على حافة حديقة عامة كبيرة.. ولكن بعض الزنوج.. نجحوا فى أن يحصلوا

على بعض الشقق أو الغرف.. وبدأوا يسكنون الحى، واكتشف البيض أن الزنوج يزحفون عليهم! فتركوا لهم الحى بأكمله حتى أصبح جزيرة سوداء.. فى بحر أبيض .

وهارلم تبدأ من الشارع ١١٢.

ولم أعرف الحى بالرقم. ولكننى عرفته بتجربة غريبة.

فحين ركبت الاتوبيس من وسط نيويورك فى الشارع ٤٢. حيث الملاهى الصاخبة، والأنوار المضاءة فى عز النهار، اتجه الاتوبيس إلى شرق المدينة.. إلى هارلم.

وكانت فى الاتوبيس وجوه عديدة من البيض والسود لم أنتبه لها كثيراً.. فقد كنت أقلب النظر فى الشارع، واسرح فى العمارات الضخمة على الجانبين.

وحين اقتربنا من الشارع ١١٢، بداية حى الزنوج، التفت إلى داخل الاوتوبيس لفتة عادية، لألقى نظرة!

وفوجئت بمشهد عجيب..

لقد أصبح الذين يركبون معى فى داخل الأوتوبيس من السود. اختفى البيض فجأة، وكأنك رفعت البقع البيضاء من لوحة سوداء.

واكتشفت ان جميع الركاب البيض نزلوا من الباب الخلفى فى المحطات السابقة.

وعرفت أننا نقترب من حى الزنوج.. ولم أسأل أحداً عن العنوان..

ونزلت إلى هارلم ..

وهارلم مدينة شبه مستقلة فى نيويورك ..

شوارعها عريضة كشوارع نيويورك، ولكنها أقل ازدحاماً..

بيوتها قزمة.. إذا قورنت بناطحات السحاب..

وألوانها صفراء داكنة، تشبه البيوت الانجليزية العتيقة.

الحجارة فيها أهم من الزجاج الذى يلمع فى بيوت نيويورك..

وأحسست أننى أمر فى بومباى.. أو فى مدينة اسيوية.

فاللون الأصفر، والأسود، والأحمر، هو اللون الغالب.. وكل شىء مضروب فى سواد أو صفار..

واقتربت من حديقة جرداء..

الشتاء جرد أشجارها من الأوراق..

وعلى المقاعد يجلس التعساء، والعاطلون.. والفاسدون الذين فشلوا فى أن يرتفعوا إلى مصاف رجال العصابات، فأصبحوا شراذم يشربون أرخص أنواع البيرة، ويضحكون على الرغم منهم لابوخ النكت وافظعها لفظاً، وابشعها معنى..

والامريكى يضحك كثيراً..

وقد قال لى أمريكى صحفى، يحب الشرقيين، صفا لى بقلبه، وحدثنى حديث القلب:

ـ إننا فى أميركا نحب أن نضحك كثيراً..

اننا نحب ان نضحك معاً.. ولكننا نخاف ـ خوف الجنون ـ من أن يضحك علينا أحد..

والزنجى الأمريكى ـ على تعاسته ـ يتشبث بطريقة الحياة الأمريكية، وأولها الضحك..

ولكنهم فى هارلم يضحكون من التعاسة..

إنهم «يجهشون بالضحك»!.

ووجدت كنيسة فى بدرون.. تنزل اليها بعدة سلالم تحت الأرض.. علقت الصليب على الجانب، كما تعلق اعلانات الصيدليات!

ولمحت على النافذة الزجاجية إعلاناً يشبه إعلانات صابون الحلاقة..

القسيس «....» يحيى حفلة موسيقى.. وبعدها الصلاة..

وأحسست أن الدين ـ عندهم ـ يرتعش بالموسيقى!

وأن الغناء والطرب والحركة لا تعنى ما تعنى عندنا من معان..

ولذلك فالقسيس ـ غير المتفرغ ـ قد يلعب البيانو، او يعزف على الجيتار.. ثم بعدها يعمّد طفلاً..

ودخلت الحديقة، فإذا بالاطفال كثيرون..

وإذا برجل يصيح من بعيد بازدراء:

ـ ابتعد يا شاب!

واكتشفت انه ينذرنى بالابتعاد، حتى لا تصيبنى كرة من كراته التى يطيح بها، بقوة هرقلية..

انه يلعب الجولف..

وابتعدت، ولا داعى للاعتذار! لانه كان يبعد عنى أكثر من مائة متر..

فصاح فى، بعد أن ابتعدت، بأعلى صوته، كأى جنتلمان:

ـ شكراً!

وجلست، بعد أن أتعبنى اللف..

وكأنما أصابنى الوهم اننى تسممت من آكلة وانا فى الغربة. فجلست أقلب صفحات الجريدة..

فللزنوج جرائدهم اليومية، ومجلاتهم الأسبوعية، وأفلامهم الجادة، ورسومهم الفكهة.

ولهم مجلة أسبوعية تشبه مجلة «لايف»: نفس الحجم، ونفس الطباعة..

اسمها «ايبونى» أى العاج.. أو «عسل وطحينة»!

وهو اللون الذى يحلم به السود، كما يحلم البيض بلون الزمردة الزرقاء، أو كما تحلم الفتاة الزنجية بانسياب شعرها، دون كى أو عناء!

ومجلتهم تعالج مشاكل الزنوج ..

فتتحدث عن دور أجدادهم فى الحرب الأهلية.

ثم تتحدث عن نجوم الزنوج ..

وللزنوج نجوم، أغلبهم فى مجال الغناء والموسيقى والرقص.. أو الرياضة.

ومن الزنوج أبطال رياضيون أفذاذ ..

بعضهم عنيف..

والملاكمة أبطالها زنوج ..

وقد حلل أحد الكتاب ظاهرة تفوق الزنوج فى الرياضة، وخاصة فى الملاكمة، بأنهم يفرجون عن أزماتهم الاجتماعية فى حلبات الرياضة ..

انهم يكرهون البيض.. والملاكمة انتقام شرعى لما يلاقونه من عذاب خارج الحلبة..

ولكن الرياضة على كل حال معبودة الجماهير ..

ولعبة «البيسبول» التى تعبدها الجماهير أبطالها فى الغالب ـ من الزنوج ..

لان فيها استعراضاً.. ولأن فيها تجمعاً.. ولأن فيها تحرشاً ومباراة وتفوقاً ..

والامريكيون يعشقون الاستعراض والتجمع والتفوق.. ولذة الاقتحام..

وفى مجلة «ايبونى» أحاديث وكتابات أغلبها، ان لم تكن جميعها، عن الزنوج، يختلط فيها الدفاع، مع فن الصحافة والإثارة..

وأغرب ما فى هذه المجلات انها تنشر إعلانات غريبة..

والصحف تعتمد على الإعلانات أكثر الاعتماد..

ولكنها تنشر إعلانات «زنجية» أو طبعات «سمراء» من إعلاناتها البيضاء!

فشركة فورد مثلاً، تنشر إعلاناً عن سياراتها ..

ولكنها لا تصور الرجل والمرأة رجلاً وسيدة من البيض كالمعتاد ..

انها تصور رجلاً أسود وسيدة سوداء.. يقولان نفس الكلام الذى يقوله الرجل الأبيض والسيدة فى الإعلان الآخر :

ـ يا لها من روعة وراحة ومزاج ..!

أو إذا أردت ان تدخن أقل عدداً وأمتع كيفاً، فاشرب سجائر وسيجار «وينستون» ..

يقولها شاب زنجى يصورونه مبتسماً من شدة المتعة والبهجة .. بل والطرب المشدود ..

وبارات هارلم كثيرة ..

مظلمة ككل بارات أمريكا ..

أنها كهوف على سطح الأرض ..

لا تبين فيها خطاك .. كأنك تدلف إلى قبو من قباء الخمر .

وتعجب كيف يعيش فيها الناس ..

يجلسون قليلاً .. ويقفون كثيراً .. ويترنحون كأعواد الحطب ..

وفى كل بار «بنك» هو البنك الامريكى الذى اشتهر فى العالم باسم البار «الأمريكانى».

طويل يمتد من أول البار حتى النهاية .. من الخشب الأصم ..

وهو الشىء الوحيد «المتماسك» فى هذا الحفل الساهر الذى لا يدعى اليه أحد، ويشترك فيه أى عابر سبيل، متى دفع الحساب ..

وفى البار ماكينة تضع فيها «العملة» وتضغط على زر، فتنزل علبة سجاير.

وماكينة أخرى تضع فيها العملة، وتضغط على زر، فتسيل إلى أذنيك ألحان الجاز، والموسيقى الزرقاء.. التى تقطر بالشجن، كأنك تعتصر عنبة، أو تقود قلباً سهل الانقياد ..

وخرجت اتجه إلى الحديقة مرة أخرى، وليس للغريب سوى الحدائق .. ومررت بدكان فيه عرافة علقت صوراً غريبة، وألواناً عجيبة.

علقت ستائر مزركشة، فجعلت الدكان المكشوف على الشارع كأنه مخدع !

وفى داخل الدكان الغريب، أو المخدع المريب، سيدة شعرها اسود لامع منسدل.. قد تكون من أصل مكسيكى أو اسبانى.. فالألوان فى غرفتها خضراء وبنفسجية زرقاء، صفراء، مما يميزها عن بقية الألوان البنية الشائعة فى هارلم.

وهى ترمقك بالنظرات الواسعة الباردة .. كأنها تمثال من الغيب .. يقرأ ما فى رأسك .. ويرى مستقبلك .. فلا تطيق هذا الود المفروض عليك من أول نظرة .. وتبتعد ..

وعرجت على الحديقة .. ماراً بكنيسة عملاقة ..

ان كل شيء في هذا الحى مليء بالغبار .. غبار، وضباب غريب..

هل هى الوحشة !

حتى الهواء غريب .. يشبه الصهد الذى يرتفع من الاناء الذى يغلى، إذا رفعت عنه الغطاء قليلاً..

انه بخار الحزن !

ورأيت أطفالاً يلعبون.. والأطفال نعمة. لأنهم لا يعرفون شيئاً .. واحياناً تصبح تلك البراءة نعمة العمر وجائزة الحياة..

وأردت ان استريح إلى صدر طفل صغير ..

أن أحدث طفلا .. أى طفل .

عندهم ـ بلا شك ـ ترتد حواجز اللون، وعقدة الطبقة، وفوارق الثراء. ويذوب كل ما يفصل الانسان عن الانسان ..

وإذا بثلاثة أطفال وصبية يقتربون منى .

والأطفال عديدون فى هذا الحى .. يلعبون فى الشوارع لعب الحوارى ..

وأدركت ان المنازل تضيق بهم.. فيطردهم أهلهم إل عتبات المنازل، أو حواف الحدائق، أو أركان الشوارع الخلفية ..

وإذا بفتاة طويلة، أطول من عمرها .. فى التاسعة. وفتى طيب يلبس نظارة ليس له عمر. وطفل فى السادسة.. مضحك.. شقى، اسنانه بيضاء جداً، ومكسرة كأنها قطع السكر حين توشك ان تذوب..

عرفت انه عفريت، لأنه يحب اضطهاد «الفتى الطول الطيب الذى يلبس النظارة».

سألته :

ـ هل تذهب إلى المدرسة ؟

فقال :

ـ لا ...

فقلت :

ـ يا للعار!.. وهو تعبير أمريكى ذائع الاستعمال! أردت أن أذيب به ما يربك الحديث فى دقائقه الأول.

وقلت له : ماذا تريد ان تكون حين تكبر ؟

فهز كتفيه، وفتح فمه، وظهرت أسنانه البيضاء اللامعة السانجة، فعرفت انه لا يعرف.!

وضحكت الفتاة ـ الذكية ـ لتقول انها تذهب إلى المدرسة مع هذا الفتى الطويل !

وقالت لى الفتاة : هل هذه آلة سينما ؟

وكنت أحمل معى الكاميرا ..

فقلت لها :

ـ انها كاميرا عادية ..

فقال الفتى الصغير وهو يقفز :

ـ التقط صورتى ..

وسألنى الفتى الطويل صاحب النظارات :

ـ ه هذه آلة تصور وتحمض فى نفس الوقت؟

فقلت : لا.. انها عادية !

وانعقدت صداقة ـ على الفور ـ بيننا نحن الاربعة ..

فقلت :

ـ لن التقط صوركم إلا إذا غنيتم أغنية .

وقد أوحى لى ذلك ما رأيته منهم.. فقد كانوا يجلسون فوق مسند الاريكة الخشبية .. ولا يكفون عن الحركة. وكانوا بين الحين والآخر يضربون بأيديهم كأنهم يمسكون «الوحدة».

انهم يميلون ويتململون بطرب داخلى، لا تعرف مصدره.. والزنوج أمة النغم..

وضربت لخمة مع الصغير الشقى ..

وأخذوا يتحاورون فى ارتباك أول الأمر، وأنا ألح عليهم، ثم راحوا يغنون أغنية شائعة بن الزنوج ..

أضرب الأرض ، ولا تعد الينا .

ـ يا جونز

أضرب الأرض ، ولا تعد الينا ..

أضرب الأرض ، ولا تنظر خلفك

يا جونز

انك أسوأ الرجال ..

أضرب الأرض ، ولا تعد الينا ،

ولا تنظر خلفك، اضرب الأرض

فأنت بلا شك رجل سيء ..

انك أسوأ الرجال يا .. جونز !

....

وهبط المساء على هارلم، حى الزنوج فى نيويورك كأنه أول ليل فى عمرى!.

فلقد كان مغرقاً فى السواد ..

وبدأت أنسحب من الحى، وانا مثقل القلب، متعب القدمين، معتل المزاج.

وباشت هارلم فى الكآبة، كأنك غفلت عن كسرة خبز فى كوب من الماء.

وازداد عدد الزنوج فى الشوارع، وبدأت أمواجهم تتلاطم كالمياه الثقيلة العميقة الغور ..

وهناك فى النافذة، امرأة زنجية تتحدث بأعلى صوتها مع جارتها حديث كل مساء. والاطفال يعودون إلى بيوتهم كأنهم لم يشبعوا بعد من التراب واللعب.. والرجال يترنحون جميعاً.

بعضهم سكارى، ولهم حق فى ان يترنحوا.. وكأنهم خرجوا من حلبة ملاكمة بعد أن تصادموا بكل قواهم. وظلوا يتصادمون، حتى

انهدم فيهم كل شىء.. وبدأ عليهم انهاك شديد.

والشوارع مليئة بالمضروبين الذين يترنحون من غير سبب ظاهر .

وابتعدت عن الميدان، الذى يفصل حى الزنوج عن بقية نيويورك.. وإذا بمنظر غريب يفاجئنى.

مقعد من مقاعد الحدائق جلس عليه بعض العواجيز .. والاطفال ..

ولكننى تفرست فى الجالسين ولم أصدق ..

هل هى صدفة حقاً ؟

لقد جلس عجوزان ابيضان، رجل وامرأة على المقعد من ناحية الشرق. حى البيض.. وجلس عجوزان آخران، رجل وامرأة من السود من ناحية حى الزنوج فى الغرب ..

فكيف حدث هذا التقسيم ؟

ولم أصدق انها صدفة؟ وألححت على نفسى لنفسى على انها مجرد صدفة ..

من المستحيل أن ينفصل البيض عن السود فى الحياة . وأن يحدث هذا الانفصال حتى على مقاعد الحدائق !

ولكنه منظر جعلنى اتفرس النظر فى مشكلة الزنوج.. لا لاحظ كل شىء، حتى ولو كان صغيراً أو يبدو تافهاً.

جيمى

أعظم لا شئ في العالم

وعدت إلى الفندق فى وسط ح نيويورك. إلى «جيمى» الزنجى الذى يعمل فى الفندق وتذكرت اننى حين سألته عن اسمه فاجأنى :

ـ سمنى ما شئت !

جيمى، أو جون، أو جوهان، أو ديك .. أو حتى ابراهام .. وهز كتفيه قائلاً :

ـ ماذا يهم ؟

وبدا لى جيمى كأنه يبيع أسماء عديدة.. ولا يلزمك أن تقبل اسماً معيناً، لأنه يبدى استعداده ليغيره، ويفصله حسب الطلب..

ودهشت .. لماذا.لا يعبأ جيمى باسمه ..

ان كثيرين ينطقون أسماءهم بشىء من الاصرار والضغط على الحروف .. وكثيرون يصطنعون الحياء أو الاستيحاء أو شيئاً من التواضع المغتبط.. ولكنهم على أى حال، يقولون أسماءهم بشىء من

الجدية.

ولكن جيمى يقبل أن تسميه أى اسم .

وتنبهت إلى جيمى الذى يعمل فى المصعد يوم الأحد.. وهو يوم العطلة المقدس فى نيويورك. ويحمل الحقائب، ويوزع البريد، ويحضر الثلج، ويوصى على المكوه، ويقدم لك أى خدمة.. ويقبل منك أن تناديه بأى اسم ..

والفندق الذى كنت أعيش فيه فى نيويورك مزدحم كعادة فنادق نيويورك : الفخم كالمتواضع.. وأكثر الأماكن ازدحاماً هو المدخل والبهو. فان الناس يقفون جوار عفشهم، ولا تعرف إذا كانوا قادمين أو راحلين. والوجوه تتغير.. والحركة لاتنقطع.. كأنك فى محطة سكة حديد.

ولكن جيمى كان الوحيد الذى يتحرك بسرعة خاطفة وسط هذا الزحام.

كان لا يصطدم بأحد، ولا يرتطم بحقيبة، وكان يحمل لفة أو يركن شنطة، أو يزق عجلة، أو يلفق لنفسه اسماً جديداً حسب ما يراه فى الزائر الجديد.

وجيمى يسير راقصاً.. أو يرقص سائراً .

والرقص سيراً طبيعة فى زنوج أمريكا ..

ولا تختلف فى البائس والسعيد .. والمغتبط والتعيس .

انهم يتململون ويترنحون ويتهادون ويسرعون ويرتدون .. وهناك نغم خبئ يهدهد رؤوسهم .. ويدفع أكتافهم إلى الأمام، وأرجلهم إلى الوراء..

وجيمى لم يكن استثناء من بقية شعبه ..

كان يسير راقصاً ويرقص سائراً باستخفاف وخفة .

فإذا وقف ضحك .. وإذا سار مال .. وإذا ضحك دمعت عيناه .

ومن الناس من يسيرون فى الشارع ودموعهم قريبة .. لا تكاد تصطدم بهم صدفة، أو توقفهم عن السير لحظة.. حتى يبكوا على صدرك .. وأنت الغريب !

وجيمى من هؤلاء ..

عيناه مكحلتان بالحزن، لامعتان بالسرور.. والحزن والبهجة يتراقصان فى نفس الوقت .. كأنهما إعلان يومض ثم ينطفئ .. ليعود إلى اللمعان.

وظللت أربعة أيام أتابع جيمى بالنظر .. واهاجمه بالسؤال، وأدقق فى شخصيته، علنى أعرف هذه السعادة دون سبب. وهذا الحزن المركون على جنب .. المستقر فى أعماقه .

وأثارنى استخفافه بنفسه، وتخففه من أى شئ، وتنازله عن اسمه بسهولة..

وأدركت فى النهاية أنه يريد أن يفلت من كل شئ.. من عواطفه..

وموقفه.. ووضعه.. انه يحس انه شيء في الفندق، وليس شخصاً..

لا أحد يحس بضرورته .. ولا يحتاج اليه ..

ولذلك فهو يقوم بأى شئ. لأنه لا يختص بشيء محدد ..

وقد أعطاه هذا الاستخفاف خفة غير عادية في الحركة .. ساعدته في حياته العملية .. لأن يصبح أعظم لا شيء .. في الفندق .

وساعدته هذه الخفة أن يكون سريع البديهة.. يتخيل ماذا تريد قبل أن تتكلم، وتجعله يطيع دون أن تأمر .

وأدركت أن جـيـمى قـرر ـ ذات يوم ـ ان يتنازل للناس عن كل شيء.

ولذلك تنازل جـيـمى عن اسـمـه.. وهو أول مـا يملكه الانسـان فى حياته وآخر ما يقبل التنازل عنه، وصار يقبل ان تقول له أى اسم ..

ولعله فى باطن نفسـه يفـضـل ان تناديه بأى اسم، على ان تناديه كما ينادون على الخدم.. بصوت مبهم لا يخرج عن هذه الحروف :

ـ بيست ..

أو . يا ! ..

أو أن تناديه باشارة متعجرفة من طرف اللسان !

شارع الغيظ

كرهت السرعة بعينى، وراسى .. ثم كرهتها أخيراً بأنفى .!

وقد كان أعظم كاتب أمريكى فى عصره ـ وهو هنرى جيمس ـ يعيش فى باريس كالمخبول الذى تاه فى جمال امرأة. وكان يلعن امريكا، لان رائحتها «آيس كريم، وموز، وكوكاكولا» ولو انه عاش حتى الآن لاكتشف رائحة جديدة تنفذ إلى الخياشيم. وهى رائحة غريبة تشبه «النفتالين»..

وظللت أفر من الأماكن التى أرتادها لأن الرائحة الغريبة كانت توقظ أنفى، وتثير غيظى، حتى أدركت فى النهاية انها مسحوق كالدقيق، يضيفه أصحاب المحلات لغسل وتنظيف الأطباق .. بسرعة..

ومللت كل هذا الاضطراب والازدحام، الذى لا أملك فيه شيئاً.. وأخذت الرائحة نفسها تظهر لى فى كل مكان أذهب اليه فى نيويورك.. حتى أصبحت كالفكرة الثابتة، فقد ظهرت لى فى كل طبق يقدمونه، بل وفى كل إعلان أراه.. وخشيت أن أتخيل هذه الرائحة

فيمن يعبرن الطريق من نساء!..

ولعله خوف باطنى من الكيمياء ..!

فبعض الناس يتشاءمون من الأطباء تشاؤماً خفياً، رغم انهم يتشدقون بالعلوم الحديثة..

ولم استرح إلى رائحة النفتالين ـ رمز السرعة الأكيدة والنظافة المضمونة ـ إلا حين دعانى صديقى الزنجى الكاتب لقرية جرينتش.. فى قلب نيويورك..

والقرية اسم أطلقوه على حى، شاءوا ان يجعلوه مختلفاً تماماً عن نيويورك، مع انه فى قلب نيويورك..

والحى يشبه مستعمرة العراة .. لأنه فرد فى كل شىء.. فى ميوله وعاداته..

البيوت قصيرة، وبيوت نيويورك ناطحات سحاب ..

الشوارع تعرف بالاسماء وشوارع نيويورك بالأرقام ..

إيجار الغرف معقول .. وإيجار الغرف فى نيويورك جنونى ..

وأحسست أن أهل نيويورك أنشأوا حيا كاملا للتثاؤب .. والراحة..

فالشوارع واسعة تشبه شوارع المدن الاوروبية .. وفيها أشجار .. وهذا وحده ميزة كبيرة .. رغم ان الأشجار ذابلة، وأعوادها سوداء،

وعروقها صماء ..

وشبان «قرية جرينتش» ملتحون غالباً .. متعبون من السهر والسهاد والضنى لاتفه الاسباب، أو أغمض العلل.. كأنهم عائدون من الميدان.. او لم يناموا اربعة أيام أو خمسة .. من اغالبهم المفضلة .. أغنية :

مش عـــــايز انام ..

أو عـــايز امـــوت ..

وفتيات الحى ـ غير الزائرت أو السائحات ـ يلبسن ثياباً محزقه، وجوارب ممزقة .. والجوارب سوداء تشبه جوارب الباليه ..

يتركن شعورهن كموضة الحرب الأولى ..

راسمالهن العناد ..

فإذا قالت نيويورك ان الموضة هى الشعر الطويل المرسل. قصوا شعورهن كالفتية الصغار، وإذا هتفت بيوت الازياء بأن الموضة هى الثياب الفضفاضة، لبسن بنطلونات سوداء ..

جميلات مشمئزات ..

وكان واضحاً ـ بعد جولة ـ ان الحى يشبه الحى اللاتينى فى باريس. وأن الفتيات نسخة امريكية من فتيات سان جرمان دى بريه.. ولكن الفتية ـ بذقونهم ـ نسخة من رعاة البقر.. بدون بقر..

وسألت صديقى :

ـ ولكن ما معنى هذا الاسم .. قرية جرينتش ؟

هل هو صاحب توقيت جرينتش المشهور !

فقال ضاحكاً :

ـ يجوز !

ولم لا !

انهم هنا يغمزون ولا يتكلمون .. يغنون ولا يأكلون .. يعيشون على الحب.. أرخص الملاذ!

وقال الصديق :

ـ هل تعرف سر تسمية الكاتب الامريكى «هنرى ميللر» إحدى قصصه بهذا الاسم الغريب أيضاً :

«مدار السرطان» ..

قلت : تقريباً !

قال :

ـ لقد كتب «هنرى ميللر» يسخر من الامريكيين الذين ظنوا انه الف كتاباً طبياً، لأن فى اسمه كلمة السرطان !

مع أن الرجل يكتب ـ كما تعلم ـ ذكرياته فى باريس .. كامريكى غاضب مغضوب عليه .

وهو يقصد ـ فى الغالب ـ ان يقول ان يعيش فى الحياة على خط وهمى مثل مدار السرطان .. ومدار الجدى ..

انه خط فى الوهم ـ لا يوجد فى الحقيقة !

وقال الصديق :

ـ ولم لا؟ لعلهم قصدوا ذلك ..

فالذين بدأوا السكن فى هذا الحى فى بدايه القرن .. كانوا أدباء وكتاب مسرح وشعراء .. ومجددين .. وقد هجروا نيويورك، وجاءوا إلى الحى ليعيشوا على سجيتهم ..

ولعلهم قصدوا رمزاً ساخراً يقصدون به انه يفرون من الزمن ..

لأن توقيت جرينتش، هو التوقيت الوحيد المفترض الذى ليس فى الحقيقة!

انه مجرد افتراض، ووهم !

قلت : ولكن الحى يكاد يكون صورة مصغرة من الحى اللاتينى ..

فقال : ان الادباء كانوا يعيشون هنا على إعانات من آبائهم ثم يدسون لآبائهم اللعنات ـ خلسة ـ فى أشعارهم ..

ـ ولكنى احس ان هناك شبهاً اخر ..

ـ الحب المباح ..؟!

فقلت : لا ..

ان وجه الشبه بينهما انه ليس فيهما بنك واحد ..

ان المحلات المتجاورة كلها حانات، ومحلات أزياء، ومكتبات ومحلات بقالة.. ومأكولات محفوظة ..

ولا يوجد جزارون، ولا رجال مال ..

وقلت متحمساً: ولكن أميز ما فى القرية ـ بحق هو مكتبات الاسطوانات ..

وحكيت للصديق عن تلك التسجيلات لكثير عن المؤلفين والقصاصين والشعراء بأصواتهم .

فولكنز. هيمنجواى. اليوت.. ايلوار.

وبالطبع أشعار الزنوج وراياتهم وقصصهم الشعبية.. ثم أغانيهم الشائعة، ومنها تلك الأغنية الشائعة هذا الشهر :

مش عـــــايز أنام ..

أو عـــــايز أمـــوت ..

وقلت لقد عثرت على تسجيل لمسرحية من فصل واحد. لعلها أغرب مسرحية من نوعها. وهى من تأليف «جان كوكتو» ولكنها مترجمة .

وهى حوار طويل. بين عاشقة متيمة، ورجل لا يهتم.. واسمها «الجميل لا يعبأ»..

والحوار مونولوج مستمر .. تلقيه الممثلة. ولا يتكلم فيه الممثل كلمة واحده .. وقد سجلتها انجريد برجمان بصوتها .

فقال الصديق :

ـ انها خير من يمثل العاشقة التى تهلوس .. لأنها محبة بلا أمل .

قلت :

ـ المسرحية كلها كلام المرأة .. وجان كوكتو هو خير من يصور هذه الحالة، لأنه يكره المرأة بخبث وذكاء ..

والجديد فى المسرحية انها ذات فصل واحد. تقطعه الممثلة فى نفس واحد ..

انها تصرخ وتهدد وتتوعد وتتقرب وتعتذر ثم تشتم، ثم تهدد وتبكى .. ثم تشتعل حتى الهياج.

تهدد بالانتحار ، وتهدد بأن لها حبيباً آخر. ثم تتوعد.. ثم تعود تستحلفه بالذكريات ..

تتحدث فى التليفون، ثم تمزق الجريدة التى يقرأ فيها الرجل، ثم تهدد بالقاء نفسها من النافذة ..

ولكن أين هو ؟

انها تريد أن تمسك الماء . والجميل لا يعبأ ..

وقال لى الصديق الزنجى، وهو يؤلف كتاباً عن الأدب الزنجى ان قرية جرينتش كانت أول مكان يستضيف أدباء الزنوج.. وينشر لهم قصصهم..

فقد ظهرت فيها مجلات جديدة. وماتت لأنها لا تتجدد.. وظهرت دعوات عديدة للانتباه الى أدب الزنوج وشعرهم وموسيقاهم. وجميع أدباء امريكا ـ دون استثناء ـ أو حاموا حوله.. عاشوا فى هذا الحى..

وقال الصديق :

ـ لقد كان ريتشارد رايت يعيش على مسيرة أمتار من هذا الشارع ..

وقصة ريتشارد رايت قصة مليئة بالتعاسة والموهبة وفى المثل الفرنسى يقولون :

ـ الموهبة كالجريمة، ولا يمكن أن تختفى !

وكان ريتشارد رايت يؤمن بأن موهبته جريمة لا يمكن أن تختفى ..

فقد كان أصغر أخوته التسعة .. وكان أبوه فقيراً وشرساً.. عاش فى ضنك. كفلته عمته.. واشتغل فى مزارع القطن.

وهاجر مع أفواج من الزنوج الى الشمال.. وبدا يكتب.. واكتشف موهبة شاعرية متدفقه.. وقدرة رائعة على التحليل والوصف..

قلت :

ـ ولكن الذى يحيرنى حقاً هو البطل عند هذا الكاتب .. انه دائماً شاب فى سن المراهقة ..

ـ ان أكثر الادباء الأمريكيين كتبوا عن هذا السن بالذات.. سارويان الارمنى الأصل كتب عن بطل صبى يافع .

وسن المراهقة هو السن الذى يحلم فيه الكاتب ويحلم فيه القارىء..

وسن المراهقة هو سن الأمل والتوقع ..

وأمريكا هى بلاد الآمال وبلاد الذين ينتظرون دورهم! أو هكذا يقولون فيما بينهم .. أو هذه هى الصورة التى صوروها بها.. فهى بلاد غرباء ولاجئين ووافدين ونازحين.. عبروا البحار وليس على أجسادهم سوى بعض الثياب .. وليس فى جيوبهم سوى بعض المال، أو خطابات التوصية.. ولكن صدورهم تجيش بها الآمال الكبيرة والاحلام والتوقعات ..

ولذلك فأمريكا هى بلاد النجاح العظيم جداً، أو اليأس العظيم جداً!

وقاع اليأس فيها ليس له قرار ..

والزنوج يعيشون فى قاع القاع .. ويقول المثل المشهور بينهم، ولا يناقشونه، ويستسلمون له :

ـ الزنجى آخر من يلتحق بوظيفته، وأول من يطرد منها !...

وريتشارد رايت عقدته هى الخوف من الموت ..

وأسرع موت فى أمريكا بمسدس.وأرخص ميت هو الزنجى..

بل أنهم ـ ويا للغرابة ـ يتسامحون حين يقتل الزنجى زنجياً آخر.. ويحكمون على القاتل بأخف الأحكام ..

وكأنهم بذلك يوجهون للزنوج دعوة الى القتل !..

لأنهم يريدون أن تختنق الأخلاق والقيم عند الزنوج.. فيصبحون مجرد طغمة من السفلة والأشرار..

ولذلك كان ريتشارد رايت يكتب عن ادجار الان بو الشاعر الأمريكى والقصاص الذى اخترع قصصاً خيالية مليئة بالرعب.

قصص كلها خيال مرعب.. القصور «مسكونة» والبيوت أطلال.. والجماجم تتكلم.. والموتى فى ريعان الشباب. والعمر طائر غريب كالغراب!.. والحياة رعب مقيم، وسجن يزهق الروح، ويرهق البدن.. والخيال جامح ملء بالمخاوف، كالبحر المليء بالصدف يغطى وجه الحقيقة كما يغطى أى بحر أى شط.. فتختفى الأرض، ويغوص القارئ مع الكاتب فى قاع البحر، الذى ليس له قرار!..

وكانت القرية قد بدأت تنام.. وبدأت المصابيح تذوى كأنها شمعة.. وقد اختلط ضوء الفجر بضوء المصابيح.. كلاهما لا ينطفىء. كأنما فى عناد متبادل!وقال لى الصديق :

ـ الغريب ان ريتشارد رايت حين كان يسكن فى هذه القرية، كا لا يكتب إلا فى مثل هذه الساعة.. حين يختلط ضوء الفجر بضوء المصابيح فى عناد غريب. وعندما تصبح القرية صامتة هامدة، كأنها جثة تنتظر قاتلها.

وكان ريتشارد يحب ادجار آلان بو. لكنه يضيق به ويهزأ منه، لانه كان يقول :

ـ لو عاش ادجار آلان بو بين الزنوج لما احتاج الى كل هذا الخيال.. ولما احتاج الى اختراع الرعب..

فقد كان يكفيه ان يصف حياتنا، فتفوق الحقيقة شطط الخيال.. لأن أسرع موت.. بالمسدس.. وأرخص ميت هو الزنجي.. ومدينتنا مدينة تؤمن بالسرعة والتجارة.

وودعت صديقى الكاتب ورائحة النفتالين تعود الى أنفى ..

رجال تقريبا

عشت أياماً فى ذلك الحى الغريب الذى أصبح كعبة المتأدبين، ورنين كلمة القرية يبهجنى.. لأننى فى قرية حقيقية داخل مدينه كبيرة.

واكتشفت فى الأسماء التى يختارونها للمحلات بهجة وتخففاً وطيف فكاهة..

فبعض المحلات على اسم بعض الأقاصيص التى ألفها أوجين أونيل الكاتب المسرحى، وقد ألفها فى قرية جرينتش، ومن ألطف محلاتهم محل «المصباح الغازى» أو «ضوء الغاز».. والامريكيون لا يزالون، على أنبهارهم بالإضاءة الكهربائية والميكانيكيه، يحنون الى ضوء الغاز وضوء الشمع. ففى أعماقهم ريفيون غلاظ الجسم، رقاق القلب. وآية الاحتفال عندهم، ان يجتمعوا حول مائدة تضيئها شموع ذابلة واهنة، فهم أعنف رومانتيكيين ظهروا فى العالم حتى الآن، ولعلهم آخر الروما نتكيين فى العصر الحديث..

فقد سبقهم رومانتيكيون فى روسيا وفرنسا وأنجلترا.. وانقضى زمانهم.. أو كاد..

ومن العسير ان تجد فى روسيا الآن رومانتيكيا مثل القصاص تورجنيف، أو فى انجلترا مثل الشاعر شيلى.. ولكن الرومانتيكية فى أمريكا لازال لها صولجان كبير.

وقد تكون السينما هى سر هذه المعجزة!..

ولعل السر أيضاً فى ان معرفة الشعوب الأخرى تتطلب نوعاً من الهجرة النفسية والحنين الى البعيد، وقد سبقت اوروبا الى ذلك السفر فى الخيال.. حين كتب بودلير عن سحر الشرق وعطوره.. بل لقد كان بودلير بعشق جان دوفال، وهى فتاة زنجية لعلها من جزر جواديلوب.. فى أعماق المحيط الهادى

كانت جان دوفال تمثل لبودلير العطر والخيال، والسفر الى بعيد فى رحلة من الشوق الماجن.

وبعدها كان رامبو يحلم أيضاً بالصومال، وقد هاجر إليه وقتاً، وكتب فيه أروع أشعاره التى يتفتح فيها قلب الشاعر على اللون، وعلاقة الألوان بالانغام..

والشعر لون يُتلى ويتلوى من الألم ..

وهناك أيضاً الرسام جوجان، الذى هاجر الى المحيط الهادى ليرسم غاباته وحرارته ودخانه.. وأجسامه العارية الدافئة !..

ولكن الرومانتيكيين فى اوروبا مهدوا ـ بقلوبهم وخيالهم وشوقهم ـ الى معرفة الشرق.. ومعرفة الآخرين..

وفى اميركا مسحة الرومانتيكية العجيبة، وهى أحياناً رومانتيكية مريضة، فهى تبيع ابتسامة النجوم للمتفرجين، وأحياناً تبيع سيقانهم الملونة على شاشات بيضاء، وهذه القصص التى يصورون فيها اليابان جنة خضراء فيحاء، أو يصورون ألف ليلة وليلة بعين غريبة هى عين الرومانتيكى، الذى يزوق كل شىء، ويزركش كل بيت، ويلمع كل صفحة.. حتى لقد أصبح والت ديزنى بطلاً شعبياً عندهم، لأنه باهر الريشة، يسيل الحنان فى الوانه والخيال يرق فى لوحاته.. المتحركة.

وظلت أسأل نفسى ما هو السر وراء هذه القرية، ولماذا تبدو للجميع خفيفة الظل..

وأدركت فى النهاية ان سر ظرف هذه القرية هو قلة الإضاءة..

فالقرية ـ على اتساعها ـ إضاءتها ضعيفة. وفوانيسها قديمة بعضها منقول نقلاً من القرن الثامن عشر، بل ويشبه مصابيح لندن التى كانت تجرى تحتها قصص شارلز ديكنز!

وقلة الإضاءة مرتبطة بهذا المزاج الرومانتيكى الغريب يحاصر النفس، ويؤذى العين، ويفتح الحواس من شدة الانتباه.. ولكن الضوء الخافت يثير الخيال، والهمس واللمس.. أو هكذا شاء الامريكيون فى قريتهم الغريبة..

وقـال لى الصـديق الزنجى الذى يجمـع مقـالات عن كـتـاب زنوج.. وهو شـاب هادىء كروح النعناع، لا يتـحـرك كـثـيـراً كدأب أهـل بلده، ولكنه يتقلب ويمـوج من الداخل، ويظهر ذلك فى ابتسـامتـه الغـريبـة اللامعة..

وقـد أثارتنى ابتـسـامـتـه، لاننى لاحظت ان كل الزنوج يبتـسـمـون ابتسامة لامعة، ولعل ذلك لأن أسنانهم بيضاء ناصعة، وعيونهم سوداء دافئة وهذا التناقض يلقى عليهم لوناً من الاسى المبتسم.

قال لى الصديق :

ـ ان شعراءنا الرومانتيكيين أعظم شعراء رومانتيكيين فى العالم..

فسألته :

ـ وهل هم كثيرون ؟..

ـ منذ خمسين سنة على الأقل، والشـعر الزنجى يفيض كالنهر.. وفى هذه القرية بالذات ظهر أعظم شعرائنا، وأكثرهم جرأة.. وهم أول من أرسلوا شعرهم، وتخففوا من الاوزان التقليدية..

قلت له :

ـ ولماذا تركوا الشعر التقليدى وقوالبه المعهودة..

فقال :

ـ لعله القلق ..

ان القلق يفيض على القلب، ويمزق الشكل، القلق لا ينسجم مع القوالب الجامدة، ولابد أن يفيض على حافة القالب الشعرى.. كما يفيض الماء على حافة الاناء..

وقال الصديق، وهو يهمس مبتسماً فى غير مجال، وكأنه يسر لى سراً :

ـ شعراء الزنوج اروع شعراء، لأن عندهم أكبر مأساة معاصرة..

وأغلب شعرهم رومانسى، لأن الزنجى يحس فى بلاده بالغربة..

واسمع هذه القصيدة التى قال الشاعر فيها :

لماذا تبحث وجوهنا السوداء فى السماء..

هل نبحث عن شىء..

هل فقدنا غاليا، ونحن نجوب الأرض الغريبة..

وانظر الى نفس العناوين التى كان يختارها الشعراء.

ـ خطابات وجدت جوار منتحر..

إن هذه الخطابات من الشعر كتبها صاحبها فى قرية جرينتش أيام الشباب، حين كان الشعراء الشبان يشربون النبيذ فى الجرادل..

وأخذ الشاب المؤلف يدق عل المائدة بأصبعه بقلق.. حتى انسجمت اصابعه، وهو يقول لى قصيدة أخرى.. خيل لى أنها على وزن «مال واحتجب.. وادعى الغضب».. لأنه كاد ينقر نقرة الرومبا..

مـــــات وانتـــــهـى ..

عـــمـــره النضـــر ..

مـــــات وانتـــــهـى ..

عـــمـــــره ذهـب !

وقـال الصـديق : ليس مـعنى ذلك ان الزنوج لم يملئوا قـصـائدهم ابتسامات وطرباً وفكاهة.

فانظر الى هذه القصيدة التى تبدأ :

ـ وسأوقد شمعتى لكم من الجانبين علها تضىء .. علها تضىء..

قلت للصديق الزنجى ؟

ـ ولكن بماذا يحلم الشاعر الزنجى؟

فقال :

ـ أحياناً بالعودة الى أفريقيا .. قبل أن ينتقل الى أمريكا عبداً مكبلاً بالحديد فى سفينة شراعية ثم فلاحاً فى أرض لا يملكها ..

وهناك شاعرة كانت تكتب عن أفريقيا . كما تتخيلها، وتتخيل أفريقيا مجرد طريقة فى السير .

والقصيدة اسمها : الى فتاة زنجية ..

وفيهـا :

إن شيئاً يشبه الملكات القديمات

يترجرج فى مشيتك

ان الشاعرة تتخيل الحرية مجرد كبرياء. ومجرد مشية فى خيلاء ..

ونفس المؤلفة كتبت كثيراً عن الشخصيات الزنجية الشعبية مثل «القطن ملك» أو «سام سميلى» أو «سام البسام الضحوك»..

وخيل الى ـ وهو يتكلم عن شخصياتهم الشعبية أنه يحدثنى عن شخصياتنا الشعبية التى تعيش على النكتة المستخفة. والتى تشبه «أبو على عامل أرتست».. فسام يضحك لأقل سبب.. مع أن الضحك بلا سبب.. قلة أدب!!

ونفس هذه الحكمة زنجية أيضاً ..

ولكن الرومانتيكية فى شعر الزنوج كانت عنيفة ساخطة أيضاً..

فمن شعرائهم من تحدث عن سخطه على هذه الملايين التى «لا تقول إلا نعم..»

وهو يعلن فى مطلع ملحمته ـ بأن قصيدته طويلة :

لعنة الله على جيل الخدم

والحشم وعمال المصاعد وعمال

العنابر وزارعى القطن وكلهم

سود وكلهم قال نعم !!

وكثيرون من شعراء الزنوج كانوا يدعون الى الثورة والتمرد .

«وأنت يا سوزى هدهدى
الطفل فى مهده ..
وأنت يا حنا، أحضرى
العشاء ..
وأنت يا جيم، أحرث الأرض ..
وأنت يا سامبو .. اذهب
الى الجحيم
فقد أغرقتم الارض كلها فى
العرق»

وشعراء الزنوج ملأوا أشعارهم حنيناً الى الهجرة وشوقاً الى البعد.. وكان فى أعماق الزنوج تلك الرومانتيكية التى قذفت بشيلى الى اليونان.. وبرامبو الى الصومال، وجوجان الى المحيط الهادى.. وقذفت بهم الى خارج أمريكا..

وقلت لصديقى الكاتب ..

ـ ان الرومانتيكية هجرة فى الخيال، وخروج عن حدود النفس الى آفاق بعيدة.

وفى كل انسان هذا الشوق الذى يربط المجنون بضوء القمر،

ويربط البحر بالصخرة.

لكنه عند الرومانتيكيين بعنف ويشتدة..

وسألني :

ـ هل قرأت قصة «الرجل الخفي» للكاتب الزنجي رالف اليسون ؟

قلت : لا ..

قال : ان اليسون كاتب شاب ظهر أخيراً ..

وهو يكتب عن هارلم.. وحي الزنوج، ونيويورك، وحياة الملونين والبيض.

ـ ولماذا اختار اسم «الرجل الخفي»؟ لقد حسبتها قصة تشبه القصص البوليسية الانجليزية.

فقال :

ـ تصورها القراء أول الأمر كذلك، ولكنهم اكتشفوا انه يرمز الى الرجل الأسود.

وهو يقصد ان الأسود هنا رجل خفي.. الناس يلقون عليه النظر، وكأنهم لا يرونه..

قمة الإحساس بالانكار. والنفي.. لأن الرحل الخفي مهاجر وموجود ومواطن منفي، تحكم عليه بالانكار ر غم وجوده، والاختفاء رغم ظهوره.. ورغم أنه يتكلم ويمشي على قدمين.

والمؤلف يقصد أن يقول :

ـ إننا نعيش تقريباً.. ونموت تقريباً.. لأننا من دخان وألم وتعب. قبل ان نكون لحماً ودماً.. إننا رجال «تقريباً»..

وسكت محدثى الوديع.. وابتسم.. فأضاءت أسنانه البيضاء وجهه، والقت عيونه السوداء العميقة ظلا من الأسى الخافت.. فبدا لى كل شىء كأنه مصباح خافت الضوء.. يتماوج فيه الظل والنور، فلا تعرف نوره وأين ظله.. وكأنه رجل خفى لا أسمع منه إلا صوتاً هامساً يتهدج من كبرياء!.

يسقط المجد

باب مسرح الجيب فى الشارع السابع فى نيويورك باب ضيق لا يدل شىء على انه باب مسرح.. تصعد الى الصالة على سلم يشبه سلم الحريق.

شباك التذاكر على «البسطة». التذاكر غالية. الحيطان سوداء فاحمة أو بيضاء ناصعة. بها ذوق وتبسيط بلا مهارة، ثم تصل الى الصالة التى تشبه الردهة الواسعة. مدت فيها الكراسى المريحة القليلة. والمسرح لا توجد به ستارة، لأن شعار المسرح :

ـ ضم الجمهور للممثلين ..

الجمهور من البيض والممثلون من السود.

والمسرحية عن الزنوج، ولذلك فهى مأساة المتفرجين والممثلين معاً.

ولكنها آية فى الغرابة ..

مقززة، مرعبة، مخيفة، تنتفض من الانفعال والصراخ، والخبث.

كتبها الكاتب الفرنسى «جان جينيه» الذى تبناه جان بول سارتر، وكتب عنه كتاباً ضخماً اسمه «القديس الشيطان» ..

وجان جينيه قديس رجيم، وشاعر كاتب ..

احتل المكان الذى كان يحتله البير كامو، منذ أعوام ..

قالوا عنه فى باريس انه لص مجرم وأفاق متعطش للدم، وقال عنه سارتر، وماذا يهم.

يكفيه انه شاعر. لأنه هو اللص الوحيد الذى كتب اعترافاته فجاءت آية فى الأدب والانفعال..

وجان جينيه أديب منتقم ..

تخصص فى أدب الصدمة، أو احراج القراء بالصدمات، يحكى لك ما يتهم أوروبا بالفضائل المزيفة، وينزع عن وجهها الاضياع الزائفة.

وقد أجاد جان جينيه الكتابة عن الغيظ.. لأنه نفسه غاضب مغتاظ لا يرضيه شىء فى هذه الحضارة الهائلة، إذا سألوه :

ـ ما الذى يغضبك ؟..

قال : أى شىء وكل شىء ..

ومسرحيات جان جينيه تجتاح كل مسارح أوروبا .. وامريكا .. مع انه كاتب يجافى الأدب، ويشذ عن الذوق، ويبصق فى وجوه متفرجيه.

وجينيه يبحث عن الغيظ فى أى مكان.. ويكيد للسادة كيداً عظيماً،

وقد وجد فى مأساة الزنوج بأمريكا «فرصة» للغيظ .. فكتب مسرحيته الشاعرية الغريبة . «السود»

وتلقف الزنوج فى امريكا مسرحيته !..

وقال جينيه ان المسرحية هزلية للبهلوانات فقط ..

كتبها ليمثلها ممثلون زنجيون على جمهور من البيض .

وقد سرح خاطرى، وأنا أشهد المسرحية.. لقد رأيت شيئاً يشبه ذلك من قبل !..

وتذكرت هاملت لشكسبير ..

ففى هاملت مسرحية صغيرة داخل المسرحية الكبيرة .

وهذه المسرحية الصغيرة تبدأ بطائفة من البهلوانات يدخلون قصر الملك.. يرقصون ويقفزون. صبغوا وجوهم بالاصباغ. حتى لا تكشف عن عواطفهم الحقيقية. ينطقون بالكلام وكأنهم لم يقصدوه. ويضحكون أو يبكون.. فيختلط الضحك والبكاء والجد بالهزل.. ولكنهم فى نفس الوقت يشيرون من بعيد الى مأساة هاملت، وعلاقة امه بعمه.

بالتلويح لا التصريح ..

وبالفكاهة بدلاً من الجد، يغمزون ويلمزون.. ولكن الغمز يثير مكامن الوجيعة . فكأنك تضع سكيناً فى جرح.. أو دبوساً فى ورم أليم..

والبهلوانات أو البهاليل يتكلمون عن المأساة بأسلوب عبيط، والفرق ـ كما يقولون ـ بين المأساة المفجعة والملهاة المضحكة خيط رفيع ..

وجينيه أخذ هذه الفكرة ونقلها الى مأساة الزنوج.. أراد ان يرسم مأساة الزنوج للجمهور الأبيض. كما رسم البهلوانات مأساة هاملت للملك عند شكسبير بطريق الغمز الجارح ..

فلماذا لا يجعل المتفرجين البيض يتفرجون على جرائمهم وأخلاقهم..

ولماذا لا يشتمهم.. وكأنه تمثيل فى تمثيل! وكأن الأمر بيد البهاليل..

ولماذا لا يجرحهم ويحرجهم ..

ولذلك قلب جان جينيه الآية ..

فجعل مسرحيته تدور حول محاكمة زنجى قتل سيدة بيضاء..

وهو يقصد ان يثير انفعال المتفرجين البيض، لأن الذى يحدث فى الحق، هو أن البيض هم الذين يقتلون الزنوج ويمثلون بأجسامهم، ويعلقونهم فوق أعمدة الكهرباء !

فإذا صرخ القاتل الاسود فى ضحيته: يا للذة القتل! انفطر قلب المتفرج الابيض، لأنه سمع مثل هذا الكلام من رجل أبيض يقول :

ـ يا للذة قتل الزنوج !

ولذلك أعلن جان جينه ان المسرحية هزلية يمثلها بهلوانات وهى فى الحقيقة مأساة مرعبة! لأنها تلوح دون ان تصرح بمأساة الزنوج فى الحقيقة..

ولذلك ألغى المؤلف الستار بين الجمهور والممثلين ..

وبدأت المسرحية بأن يدخل الممثلون ليحدثوا الجمهور الابيض، ويقدموا أنفسهم..

وفى منتصف الفصل الأول، ينتقى الممثلون متفرجاً من البيض، يطلبون منه ان ينتقل من صفوف المتفرجين الى المسرح، ليقدموا له وردة فى أدب وحفاوة.. ثم ينهالون عليه ذماً وشتيمة.. ويعود المتفرج الابيض الى مسرح المتفرجين قبل ان تدور معركة، و «تبوظ» المسرحية!

ويدخل زنوج نحاف. يلبسون ملابس السهرة السوداء، امتشق قوامهم.. وطالت رقابهم.. وكأنهم فى حفلة ساهرة «ملوكية»..

قدموا أنفسهم .. وانحنوا فى تكريم ملحوظ ..

ثم يدخل فريق آخر فى جوف المسرح، خمسة قضاة يلبسون ثياب السهرة المنشاة، وسيدة فاضلة تلبس فستان سهرة مزر كشاً وعلى وجوهم جميعاً أقنعة مطلية.. لا يتكلمون ولكنهم يعتلون منصة عالية، ويتخذون سمت القضاء والعدالة ..

الذين يتكلمون هم الجانى الذى قتل. والشهود الذين شاهدوه..

والجثة البيضاء يضعونها فوق مائدة . ولكنها جثة فى الخيال.. ولذلك يرمزون لها بكفن أبيض ممدود على المائدة .

كفن مغطى بالزهور الصناعية ..

وتبدأ المحاكمة بدقات على المنصة ..

ويسأل القضاة :

ـ لماذا قتلتها أيها اللعين ؟..

فيقول القاتل :

ـ قتلتها لأنى أحبها ..

ويقول: أنا متوحش، أبتهج للقتل. فأنا اكل لحم.. أسود.. متوحش، همجى.. شرير.

وشهد شاهد بأنه قتلها. وهى تنزل من دارها ..

وأنه قتلها، وليس لها جريرة..

انه سفاح مهووس.. وهو لم يحبها.. لأنه لم يعرفها انه شرير، لأنه يقتل، ويكذب.. فهو لم يحبها لأنه لم يلتق بها.. لقد قتلها لمجرد أنها بيضاء.. مجرد لونها!

أهذا سبب يكفى للقتل ؟.

مجرد أن يكون حزنك تحت جلدك.. فيصفر لونك من الكمد، أو يكون حزنك فى قلبك فحماً.. فتصبح أسود اللون.. يعتبر هذا سبباً للقتل..

أى كلام هذا الذى يقوله المتهم !.

لقد قتل بلا سبب.. لمجرد اللون.. وهو مجرد صدفة بحتة.. فالناس يولدون ولا يختارون ألوانهم..

ثم يتكلم أحد الممثلين عن عقدة السود.. وإحساسهم بالضياع..والكآبة المخنوقة، والاشفاق على النفس.. والحزن المتكبر ..

إحساس المشفق أن يكون نصيب كل إنسان حسب لونه.

ولذلك يصرخ الممثل :

ـ أنا أكره القمر لأنه ابيض ..

وأكره اللبن .. لأنه ابيض ..

وأكره الماء والنجوم.. والورق.. والأسنان.. وكل ما هو ابيض.. حتى بياض العين.. أكرهه.

ولذلك قتلت هذه البيضاء اللعينة ..!

إن لبنى أسود.. وقمرى أسود.. وصباحى أسود..

ويا لسواد الليل اللعين !

فالليل هو مأوانا .

هو وطننا الذى يقبل ـ ويا للعار ـ أن يأوى تحت جناحيه العظيمين السود والبيض والصفر والحمر معاً..

ثم يصيح مشفقاً غير معتذر :

ـ لقد أحرجنى الليل، وهو من بنى وطنى !

ولكن المحاكمة تستمر.. فلابد للقاتل من قصاص.. ولابد للجريمة من خاتمة ..

ويبحث القضاة. هل كان هذا القاتل يحب القتيلة فعلاً.

ويكتشفون كذبه.. فهو مرة يقول أنه قتلها وهى تجلس الى ماكينة خياطة.. وتارة يقول انه قتلها عندما كانت تسير متأبطة ذراع حبيبها! وهو يروى رواية وسرعان ما ينقضها ..

انه كاذب ..

لقد قتلها بالصدفة ..

وهذه أبشع جناية، وأنكى جريمة ..

ان يقتلها لمجرد ان القمر ابيض، أو اللبن ابيض..

أنه ينتقم من القمر واللبن .. ومن بياض العيون ..

ويحكمون عليه بالاعدام . لا لأنه قتل.. ولكن لأنه كذب، وادعى أنه كان يحبها..

فيا ليته أحبها ثم قتلها .. قتل المحب الغيور ..

بل ليته قتلها لمجرد التسلية.. لمجرد قتل الوقت.. قتل العابث الملول.

ولكن يا للعار .. إن أشد المجرمين قسوة يقشعر بدنه من هذه الجريمة التى ليس لها سبب.. سوى بياض اللبن والقمر والعيون..

وماجت الصالة بالانفعال، والصرخات المتشنجة تهز الحاضرين.. وحين تم إعدام القاتل.. انحنى الممثلون بأدب واحتفاء.. واعتذروا للسادة المتفرجين عن هذه التمثيلية الوقحة.. وعن شتم السود للبيض.. وقالوا لهم: نأسف لأن التمثيل حبك، وللخيال أحياناً عذر، وسماح.

وخرج المتفرجون لأول مرة من مسرحية، وقد اشتروا تذكرة ليحسوا بالأسف..

وقال لى صديق أمريكى صحفى كاتب، ونحن ننزل من مسرح الجيب:

- إن جينيه الفرنسى لم يعبر تماماً عن مأساة الزنوج!

إنه غريب عنهم.. وهو لا يعبر بصدق إلا عن مأساته الخاصة..

إنه يبحث عن أى غيظ فى أى بلد..

إن المأساة ليست كما صورها جان جينيه ..

فقلت :

- ولكن المأساة نفسها صورت فى قصص الكاتب الأمريكى الزنجى ريتشارد رايت ..

لقد تحدث فى قصته «أمعاء السمكة» التى كتبها قبل أن يموت، عن الخوف والرعب يصيب الزنوج فى الجنوب، حين يهتاج البيض ويخرجون فى المدينة يحملون المشاعل يبحثون عن أى اسود.. ليقتلوه .

أليس القتل لمجرد اللون هو أفظع الجرائم ..

فقال الصديق ملحاً :

ـ ولكن هناك كتاباً من الزنوج ظهروا بعد ريتشارد رايت مثل بالدوين.. وهم يكتبون عن الزنوج من زاوية غير عنصرية..

من زاوية إنسانية ..

فريتشارد رايت هاجر الى باريس ولم يعش بين الزنوج منذ نهاية الحرب..

فقلت :

ـ ولكنه يتذكر طفولته .. ويكتبها !

ولم أشأ أن أكثر الكلام، فقد لاحظت أن صديقى ـ وهو امريكى صادق القلب ـ كان يحس بالحرج.. وكانت المسرحية لاتزال تهزه كما كانت تهزنى.. وان كان يختلف..

فلقد أفرجت عما كانت أحس به من ضيق .

ولكنها أوقعته فى حرج، وضيق وكآبة..

فأردت أن أغير الحديث، وقلت، ولكن :

أين هذا الكاتب الجديد بالدوين ..

فقال :

ـ لقد أصبح من أثرياء الكتاب المعاصرين عندنا ..

ولكنه لا يظهر فى المجتمعات ..

فسألته .

ـ لماذا ؟

فقال الصديق ضاحكاً :

ـ لعله يحس بالحرج أيضاً.. لأنه كتب آلام الزنوج وباع هذه الآلام فى كتب وأدب.. واشتراها منه جمهور القراء ولا يزال يحس بالحرج والألم.. لأن آلام الزنوج صنعت له مجداً وشهرة.. وقد بقى أهله وأبناء عمومته يعيشون فى الشقاء والتعاسة..

وتفرع الحديث فى ألوان عديدة.. وكان الليل قد انتصف وافترقت عن الصديق.. وسرت فى الشارع السابع مبتعداً عن مسرح الجيب.. وفى ذهنى صورة أتخيلها للكاتب الذى يشتهر فى المجتمع، لأنه باع له الآلام، والدموع، وبقيت بعده الآلام والدموع..

وتوقفت لحظة، وكأننى لازلت أحدث صديقى لأقول :

ـ يعتذر للمجد ..

وقلت لنفسى، وكأننى أحاور نفسى :

ـ لا .. لا ..

بل يسقط المجد .. الذى يبيع الدموع!

الى الجنوب

بدت لى أمريكا كأنها مفرمة، تفرم لحمى.. وأصبحت التفرقة بين البيض والسود، وما رأيته بعينى فى هارلم حى الزنوج فى نيويورك كالضباب الذى يحجب عنى كل ما رأيته فى أمريكا من مسارح عظيمة، و بنايات ضخمة أو مصانع هائلة!

وعدت الى الفندق متعب القلب ..

وكان على أن أعد حقائبى بسرعة لاسافر من نيويورك

وأصبحت أضيق باللون الداكن الذى يطل على من كل ناحية.. حتى من النافذة..

فمهما رفعت الستائر، فإن لوناً داكناً يظل منسدلا بينى وبين السماء.. لون لا أستطيع أن أرفعه، أو أن أشقه، ستار دائم ..

وانكتم جو الغرفة ..

وفتحت تكييف الهواء.. فعلا صوته،وأصبحت الغرفة كأنها زورق من زوارق الصيد البخارية التى يعلو فيها أزيز الموتور ..

وضقت بنفسى : أى حياة !

لقد أصبحت من كثرة السفر كرجل يطارده القانون ..

حقائبى دائماً مفتوحة، ملابسى دائماً مستعدة للطى واللف.. المتاع الوحيد الذى أملكه هو ملابسى وبضع حاجيات وفرشاة أسنان جديدة اشتريتها ..

حتى السرير ..

ونظرت الى السرير، وأنا حانق ..

لقد أصبح السرير فى حياتى كالتاكسى.. أستأجره ليلة، أو بضع ليال، ثم أتركه لأذهب الى سرير آخر . وفندق آخر.. ومدينة أخرى.. وأناس آخرين..

وتخبطت فى الغرفة، والتوت قدماى، وكأننى تائه يشق طريقه فى زحام.. مع أننى وحدى..

وسرحت، ولا أعرف لماذا.. فى الكاتب الزنجى الأمركى «ريتشارد رايت»، الذى هاجر الى فرنسا، ومات قى الغربة منذ عام

وتعلق خيالى باسم ريتشارد رايت .. الذى ظل يتردد فى رأسى، وانسجم اسمه، واختلط مع صوت موتور آلة التكييف.

ـ ريتشارد ..

ـ رايت ..

ـ ريتشارد ..

ـ رايت ..

ـ رايت ! رايت ! ريتشارد رايت !

وزاد اللون الداكن داخل الغرفة، حتى أصبحت .. رمادية..

ونظرت الى النافذة علنى أرى جزءاً من السماء .. متشفعاً

ولكن السماء.. كانت هى السماء، مثقلة بالضباب وأثقال الصناعة..

والتفت الى المرآة، فهى الشىء الوحيد الصافى اللامع فى الغرفة.. وهى النافذة الحقيقية فى الغرفة.. لأنها تكسر الجدران.. ولو فى الخيال، وتفسح صدرها لغرفة أخرى مماثلة.

ونظرت الى نافذة الوهم، ونافذة أخرى قد أقفلها الضباب ..

وعاد الى رأسى ذلك الإيقاع الغريب :

ـ ريتشارد رايت .. رايت .

ومأساة الزنوج ..

أى تعاسة !

واقتربت من المرآة ..

واكتشفت أننى أفعل شيئاً غريباً ..

أفعله لأول مرة فى حياتى ..

لقد أخذت أتفرس فى وجهى ملياً ..

ولم يفتنى أن أسأل نفسى وانا أنظر لماذا أفعل ذلك ..

فأنا أحياناً ـ كل الناس ـ احملق فى المرآة. وكعادة الناس أيضاً أخطف النظر خطفاً الى وجهى. وأتذكر ما عودونا عليه فى أيام الطفولة من خوف من النظر فى المرآة..

ولكننى. هذه المرة ضبطت نفسى، وأنا أحملق فى المرآة طويلاً.. وكأننى أبحث عن شىء بالذات ..

لقد كنت أبحث عن لونى..

وأخذت أحزم حقائبى بسرعة، وأنا أفكر :

ـ ان الحياة فى امريكا تضيف إليك صفة جديدة للانسان كالطول والحجم والذكاء والتعليم والخبرة..

صفة هامة هى اللون ..

وأسرعت الى المطار، وأنا أحمل لونى معى ..

وقال لى الأصدقاء :

ـ أن كل ما رأيته فى هارلم، أو شيكاغو ونيويورك، وواشنطن.. وكل هذه المدن فى الشمال لا يساوى شيئاً مما ستراه فى الجنوب..

إن الجنوب هو قلب المشكلة مشتعلة.

ـ ولكن كيف اسافر الى الجنوب.. وهل يسمحون لى بالسفر؟

قالوا :

ـ السفر للزنوج والملونين مسموح به، لأن القطارات والطائرات تابعة للحكومة الفدرالية، وقوانينها تمنع التمييز بين البيض والسود ولكن.. كيف تعيش هناك..

ان الولايات لها قوانينها الخاصة.. وكثير من ولايات الجنوب لا تسمح بالمساواة بين البيض والسود.. الفنادق مغلقة.. والمطاعم موصدة فى وجوه السود..

قلت :

ـ والسمر؟

ـ .. .. .. !!

وسألت :

ـ حتى ولو كانوا من الأجانب؟

فقالوا :

ـ إنها مخاطرة !

وتعقدت المشكلة ..

فما فائدة السفر الى جنوب امريكا ثم تقفل فى وجهى المطاعم، وأطرد من الفنادق. وينظر الى بعين العداء فى الشوارع؟

ونصحني الناصحون في الشمال انه لا سبيل الى أن أشق، طريقي بمفردي .

فلا بد من أن أذهب مع جماعة، ولتكن جماعة من الصحفيين أو أساتذة الجامعات.. حتى لا أبدو مصلحاً أو متطفلاً..

وحدثت المفاجأة ..

قسم الصحافة.. في جامعة انديانا سينظم لعشرين صحفياً، يمثلون ثلاث عشرة جنسية من أنحاء العالم رحلة خاطفة الى مدينة اتلانتا عاصمة ولاية جورجيا.

وجورجيا ولاية من ولايات الجنوب العاتية.. وستقوم الجامعة، وللجامعات شأن كبير.. بالاتصال مع حكومة الولاية ومع عمدة المدينة، ومع رئيس البوليس.. ومع جامعة اتلانتا.. ومع وزارة الخارجية الامريكية.. وترتب كل ما تحتاجه من أوراق، وستحدد المواعيد.. وليس علينا سوى الاستعداد للسفر!

ومما زاد في بهجة استاذ الصحافة في جامعة انديانا الذي يرتب الرحلة: ان ولاية جورجيا كانت قد أعلنت قبل ايام، انها سمحت لتلميذتين في سن الثانية عشرة بدخول المدارس مع البيض..

وفرح الاستاذ.. وطير فرحه لمجموعة الصحفيين، وقال انه رتب كل شئ..

وكانت في الأذهان أحداث ولاية الاباما.. ومدينة ليتل روك.. التي حدثت منذ عام..

حين رفض حاكمها ان يذعن لأوامر ايزنهاور بأن يقبل تلميذة زنجية فى مدرسته. وقامت القيامة، وأرسل ايزنهاور قوات الجيش.. حتى ينفذوا بالقوه - إن لزم - قرار رئيس الجمهورية..

وكانت سعادة الاستاذ تطفح على وجهه.

لأن مدينة اتلانتا عاصمة جورجيا أثبتت انها «أعقل» و «أرزن» من مدينة ليتل روك..

وقال لى بعض الأصدقاء: ان كيندى حين جاء الحكم قال كلاماً حول مشكلة الزنوج. وقال: ان امريكا لا تستطيع ان تتجاهل تكرار حادث «ليتل روك» ثانية..

ومعنى هذا الكلام ان فضيحة ليتل روك هزت سمعة امريكا فى خارج امريكا.. وان كل هذه الملايين التى تصرفها امريكا على الدعاية يمحوها - فى لحظة - حبر عن التفرقة العنصرية..

وقال لى نفس الاستاذ انه ينعى على الصحافة الأمريكية اهتمامها «المثير» بحادثة «ليتل روك»، فقد نشرت آلاف الكلمات عن مأساة ليتل روك ففضحت امريكا. من حيث لا تدرى..

وقال لى المتحمسون: ولهذا السبب، اقتنع أهل ولاية جورجيا بأنه لا لزوم للفضائح .

وان التطور نحو المساواة سيحدث لا محالة، ولذلك أذعن كما قال لى المتحمسون - أهل جورجيا. وقبلوا تلميذتين فى مدرسة ابتدائية هذا العام..

ولم اشـأ ان أعـارض الذين حـدثونى بما شـاهدته فى هـارلم، او شيكاغو. ولم أشأ ان أتحدث عن الشمال وعذاب الزنوج فيه..

وتركت كل شئ، حتى أرى بعينى . ثم بعدها أحكم بما رأيت..

وانتظرنا أياماً..

ولكن أنباء الرحلة لم تبد فى الأفق.

وأحسسنا ـ مجموعة الصحفيين وانا ـ ان هناك مشكلة لا ندرى سببها.. تعطل سفرنا!

وانتظرنا اسبوعاً ثم اياماً. حتى جاء استاذ الصحافة فى جامعة انديانا ليعلن ان بعض التعديلات، أو بعض التحفظات قد أجريت على الرحلة..

وقال الاستاذ :

ـ نعم سنذهب .. ولكن ..!

فصرخنا معاً :

ـ ولكن ماذا ؟

فقال الاستاذ بسرعة غير عادية، وبلهجة حاسمة ليخف اضطرابه: على الصحافيين الذين أتوا من افريقيا ان يلبسوا ثيابهم الوطنية فى داخل الولاية..

وكان معنا صحفيان من نيجيريا، ومن سيراليون.

صحفيان زنجيان ..

ووقعنا فى الحرج !

لأننا اكتشفنا أننا نحمل المشكلة معنا.. قبل ان نذهب!

ممنوع الهمس

نستطيع أن تحس التغيير بين شمال امريكا وجنوبها بأنفك وجسمك قبل أن يسعفك النظر..

فكل ما كان مشدوداً متوتراً فى الشمال، انحنى فى الجنوب وتراخى، كأنه عنقود كبير، التوى على حافة طبق!

فالارض تنبض، ووجهك يلفحه نسيم ساخن متثاقل.. والتراب يغلب على الاسفلت.. والهواء مثقل برائحة ما كأنها خليط مطبوخ من الخضرة والخشب.. والشجر صفصاف.. جذعه ضخم ولكن ظله خفيف. لأن شدة الضوء تجعل الظل كأنه طلاء مؤقت على الارض..

والشوارع واسعة، لا يعبرها طفل بمفرده. والبيوت من دورين أكثرها خشب.. بيضاء أو بنفسجية أو بمبة.. لابد من خضرة حولها . حتى ولو اختصرت الخضرة الى أصص الزرع.. اللاكيه يلمع فى الضوء.. وكانت هواية الازواج دهن البيوت بالبوية أيام السبت بعد الظهر.. والكراسى «الهزازة» الخشبية فى مداخل البيوت، أو الشرفات

التى تشرف على الأرض أو تغطس فى حدائق صغيرة لا تكفى لرجل واحد يتمدد على راحته.. وعلى الكراسى عواجيز لا تعرف من أين أتوا.. ومثاذا ينتظرون وفيهم من يحملون . ويضعون تحت أسنانهم أعواد العشب ـ وهذه عادة امريكية ـ وكأن هذا هو آخر أعمال الانسان فى نهاية الحياة!

كل شىء ينضحه الضوء.. والضوء يفتح الغامق . ويكسر الخطوط.. ويخترق الستائر. فتحس ان مدينة أتلانتا عاصمة جورجيا مدينة واضحة. ليس فيها شوارع خلفية وليس فيها أركان جانبية أو مخابىء ظليلة..

لقد أفشى الضوء كل أسرار المدينة ففضحها..

والضوء فضاح ..

والحر يخرج الناس من بيوتهم.. الغرف مفتوحة الأبواب.. الحدائق الصغيرة أسوارها قصيرة. الناس يتحدثون من النافذة والشرفات.. أو من فوق الحواجز التى لا يعلو على الركبة إلا قليلا..

وحديث الشوارع كحديث المخادع ..

فالحر «يفرهد» الجسم.. واى سر على اللسان.. ينطق بما كتمه الصدر.. وسرك الدفين فى جيب غيرك.. وهم يغضبون فى الشارع ويلعنون ويحبون ويسرقون ويلعبون على المكشوف..

قال لى صديق، ونحن نعبر الشارع الرئيسى :

ـ فى هذا الشارع ماتت مرجريت ميتشام، مؤلفة الرواية الشهيرة. «ذهب مع الريح» ..

ولم ينتظر صديقى، حتى استوضحه. فقد كنا نعبر الشارع وقال:

ـ لقد داستها سيارة، بينما كانت تجلس مسترخية على كرسى هزاز فى فناء بيتها !

«وذهب مع الريح» قصة الحرب والحب والحريق بين الجنوب والشمال . الحبيبة من الجنوب.. والحبيب من الشمال.. بين الشمال والجنوب حرب وبينهما حب.. وفوقهما وحولهما وفيهما حريق.. والحريق الذى حدث فى القصة حدث فعلاً فى اتلانتا أثناء الحرب الأهلية ..

و «ذهب مع الريح» صورة للحب العنيد النبيل الأهوج، الحب كأجمل كارثة.. أجمل من الحريق والغرق والفيضان.. ولكنه حريق وفيضان وقدر مكتوب!

ولذلك فأتلانتا تشم فيها رائحة القدر. المصابيح الكهربائية كأن بها زيتاً.. والصور المعلقة فى البيوت دقيقة، بذل فيها فنانون جهداً واعصاباً.. والكنائس رهيبة مخيفة كالبوارج.. والدين له سطوة.. والمستشفيات كالحصون، تجعلك تحس ان الاحسان هو الممر الضيق بين الأغنياء والفقراء الذين ينزلون من صلب العبيد ..

فأتلانتا بلاد زراعية الأصل إقطاعية المزاج ..

ثروتها القطن.. وأيديها العاملة هم العبيد السود.. والملاك البيض هم سادتها المخلدون.. أو المنحدرون.. أو المنحلون..

وعلى التو، تحس فى كل ما تراه لمسة أرستقراطية وكبرياء.. أو عجرفة..

حتى فى الألوان ..

فالامريكيون فى الشمال شغوفون بالألوان الزاهية، كل شىء لامع ساطع، لابد أن يكشف عن سعره وثمنه قبل مادته ورسمه. والألوان صفراء حمراء. مخططة مضحكة. ولكنها فى الجنوب وقورة منتقاة.. فيها ذوق ولها مذاق.

واتلانتا هى عاصمة الكوكاكولا.. فى العالم ..

فأول زجاجة كوكاكولا فى العالم ظهرت من هذه المدينة الحارة. وان كل أهل اتلانتا يفضلون المشروبات الروحية !

وشركة كوكاكولا لها سطوة.. فهى تبنى الكنائس.. وتنفق على بعض الجامعات.. كما تعبىء الشراب للعطشى.. فى أى مكان..

وأهل الجنوب ينظرون الى أنفسهم على أنهم هم قلب وأصل امريكا.. وينظرون الى أهل الشمال بشىء من الازدراء.. على الرغم من ان الشماليين هزموهم فى الحرب الأهلية، وأرغموهم على تحرير العبيد!!

ولكن أهل الجنوب من البيض لايزالون يتمسكون بأفكارهم.. ويعتقدون أن الله خلق البيض ووضعهم فوق السود وهم خلاصة البيض، والسود «زبالة» السود!

وكل أبيض، مهما نضج عقله يقول لك :

ـ لقد ورثت ذلك عن أبى، فلماذا أغيره ؟

وهم ينظرون الى أهل الشمال بشيء من الكراهية..

وقد تحولت هزيمتهم الى كبرياء واضحة، وكراهية مكتومة. وهم يتمسكون بالتقاليد، ويعتقدون ان أكبر شرف نالوه هو أنهم انهزموا من الحرب.

ولا يزال كثيرون منهم يسمون الشماليين :

«اليانكى»

بلهجة الزراية وصعوبة الابتلاع .

ولا تجد واحداً من البيض لا يقول لك :

ـ لقد مات أبى أو عمى أو خال على الأقل فى الحرب الأهلية.. مع أن مائة عام تماماً مضت على هذه الحرب!

ودخلنا المدينة متوجسين .

فمعنا صحفيون من أفريقيا. وهم زنوج بحكم اللون..

وكنا نعلم أن هذه أول مغامرة يقوم بها جمع من الصحفيين لزيارة الجنوب للبحث عن مشكلة البيض والسود.

وقد حجزت لنا جامعة اتلانتا عدة غرف فى أكبر فندق من فنادق المدينة.. وعرفنا بعد ساعات، ان هذه هى أول مرة، تقبل فيها إدارة الفندق رجالاً ملونين وسوداً، كنزلاء دون ان تقبلهم خدماً أو نافخى بوق!

وأصبحنا نسرع الخطأ خوفاً من الحديث مع أحد ..

فالمدينة كلها تنفرج علينا ..

وكان صديقنا الصحفى النيجيرى وهو شاب رقيق العاطفة الى حد الحساسية الشديدة، يلبس ثوبه الأبيض، ونظارته الطبية، ومنظره لوحده مظاهرة..

وصديقنا الآخر، من سيراليون، يلبس ثوبه الوطنى البنى الذى يشبه الجلباب، وهو يشبه الملاكم الغاضب، يقرقع بالضحك . متظاهراً.. قلقاً..

وكأننا آتينا الى اتلانتا لنضحك !

والناس ينظرون إلينا مدهوشين :

ـ ما الحكاية ؟

ـ ما الذى أتى بهم الى قلعة الجنوب !

ـ هل هى مؤامرة من الشمال لاستفزاز الجنوب ؟

وأحسست أننى أسير على حبل ..

وقال لى زميل صحفى :

ـ لأول مرة فى حياتى أحس أننى تحفة !!

وكان كل شيء مرسوماً لنا. والتعليمات مشددة لا نحيد عنها، علينا ان نسير معاً، ولا يفترق واحد عن الآخر ..

ثم ننزل الى غرفة ـ ستقفل علينا ـ لنأكل معاً. ولا نختلط بالنزلاء البيض.. حتى نقابل العمدة فى الصباح، ونقابل أساتذة الجامعة، ورئيس البوليس، ومدير المدرسة التى قبلت الفتاتين الزنجيتين الصغيرتين هذا العام.. حتى نقتنع!

وهمس لى بعض الأصدقاء من الوفد ان سبب تأخير الرحلة عن موعدها أن أصحاب الفنادق فى المدينة عقدوا اجتماعاً قبل ان نصل. اعلنوا حالة الطوارئ. وأخذوا يبحثون :

ـ هل يقبلون وفداً صحفياً ملونا؟

والسابقة خطيرة .

ورفض أصحاب الفنادق أول الأمر، خوفاً من ان يعلم أهل المدينة من البيض، فيجتمعوا ويغضبوا، وتحدث مخاطر أو مفاجاءات ..

وتدخلت واشنطن. وألحت بقبول الوفد، خوفاً من الفضيحة أو تمسكاً بمبدأ جديد.

وأخيراً وصلوا الى حل وسط .

ان ننزل فى أرقى فندق، حتى لا تختلط إلا بعلية القوم! وان يلبس زملاؤنا السود ملابسهم الوطنية، حتى يبدو أنهم ليسوا من الزنوج المواطنين!

وأن نسير معاً، حت يبدو أننا وفد عابر وزائر لن يقيم طويلاً.

وأن نتناول الافطار فى غرفنا ..

وثارت مناقشة طويلة حين أقاموا لنا حفلاً! حضره أساتذة الجامعات، وصحفى أشقر يترأس جريدة محترمة، تدافع عن إلغاء التفرقة العنصرية، وبعض المحامين الذين جاءوا ليتفرجوا علينا و ..

وكان السؤال :

ـ الى متى !

وقال مدير البوليس :

ـ بصراحة، انك تناقش العاقل من البيض، فتجده راجحاً فى كل شيء، وحين تأتى سيرة المساواة بين البيض والسود، يتقلص وجهه ولا يقبل المناقشة..

وقال عمدة المدينة، وقد قيل لنا انهم انتخبوه، لانه من أنصار إلغاء التفرقة، وهو يملك عدة مصانع، ومتاجر، ويعادى حاكم الولاية الذى يعارض المساواة بين البيض والسود.

ـ المسألة تحتاج الى صبر طويل .

ـ وحتى متى ؟

فهز كتفيه حائراً .

ـ هل يمكن ان تبقى هذه التفرقة فى المطاعم والمساكن والسينمات والمسارح والسيارات!

وأخيراً، وصلنا الى رأى اتفق عليه أغلبية الحاضرين .

ـ ان حل مشكلة الزنوج فى الجنوب ستستغرق على الأقل ثلاثة أو أربعة أجيال ..

وسألنا :

ـ وما عمر الجيل ؟

ـ ثلاثون أو عشرون عاماً !

ومعنى ذلك أن هذه الاوضاع ستبقى مائة عام أخرى !

ـ وراعنا الاستخفاف أو الاستسلام للواقع !

ـ ولكن ماذا نستطيع ؟

أنها أمور يستوى فيها الاستخفاف والحماس، ما دام اشد المتفائلين يعتقد أن المشكلة لن تحل غداً..

وهبط الليل، وصفت السماء صفاء الحلم السعيد !

وراعنا الفرق بين الجو فوق، والجو تحت!

واختلط فينا الإحساس بالخجل والإشفاق والغيظ وقلة الحيلة!

وقرر صديقان من الهند، وانضممت لهما، أن نذهب لنسمع موسيقى الزنوج! الآن، وعلى الفور، وبأى ثمن!

وذهبنا الى حانة «الطاووس»..

وصعدنا إليها فى ممر ضيق يميل بشدة، كأنما نتسلق جبلاً.

الممر لا يتسع إلا لشخص واحد. والميل شديد. يلخص فلسفة الحانات، والوصول الى الشر، او اللذة.

الصعود صعب، والانزلاق ـ أو الهبوط عائداً ـ سهل.

وأصحاب الحانات، فنانون ـ أحياناً ـ فيما يرسمونه ويخرجونه فى مداخل الحانات، فبعضهم يرسم لك كهفاً وحجارة، وأضواء وممراً ضيقاً، كأن صاحب هذه الحانة يريد أن يردك الى عهد الكهف، وانطلاق الشهوات بلا حساب.

الممر الطويل العالى يشعرك انك تصعد على جبل، خصيصاً، لتذنب!

مع ان صعود الجبال ـ عادة للتوبة، لا لارتكاب المعاصى.

وهذه هى الفكرة !

وفى نهاية الممر، تلقفتنا سيدة فى قفص، لتقطع التذكرة.. فإذا بها غالية الثمن، بالنسبة لما يوحى به ذلك الممر الذى يشبه عنق رجاجة مبتورة.

وأطل علينا بضعة زنوج، كأنهم مصارعون على الاستيداع أو من الهواة الذين يجمعون بين وظيفتين !

وفوجئنا بعد المر الضيق، بدهليز رفيع طويل.

ولم تتوقف المفاجأة عند ذلك، إلا حين وصلنا الى الصالة نفسها، فإذا بها بهو كبير كأنه بهو فى قصر من قصور الرومان .

فى اتساع ملعب كرة القدم. ومع ذلك فليس فيه موطىء لقدم .

ولفحت أسماعنا الموسيقى،كأن سخونتها تهب من فرن قريب.

وكانت المغنيه تغنى أغنية تقطر شجناً :

ـ يا ناس نفسى

أمد جسمى على الأرض وأتمدد ..

وعبق المكان بالموسيقى والأغانى ومشاعر العناء والشوق الى المستحيل كما يختنق مكان صغير بدخان كثيف .

ودارت الألحان بلا انقطاع، كأنهم لا يتعبون. وقل احتشام الجمهور.. فأصبح لكل سجيته.

والأغانى الزنجية تتردد من الجوقة الزنجية على الجمهور الزنجى فى الصالة الزنجية حتى أصبح الجميع يمسكون بالوحدة جمهوراً ومطربين وموسيقيين وسقاة.

وشدت المغنية الزنجية ثوبها الابيض على جسدها بإحكام شديد وكأنها ولدت به..

وغنت ـ فأثارت مكامن الشجن ..

والغناء عند الزنوج بكائيات أو غزل ..

وصوت المغنية كاللؤلؤة التى تشق الزجاج.. نافذ قاطع.. والسامعون ـ من شدة الوجد ـ أصبحوا من زجاج.

وبكائيات المغنية تعاتب القدر، ولكنها لا تلعنه. لأنها تخاف ان تستثير القدر. ولكنها تلعن «الحظ» الذى حكم.. وتتكلم عن هجر المحبين وافتراق الأحباب وشوق العشاق.

والبكائيات فيها ظرف .

ظرف المساكين الذين يبتلون فيضحكون. ويرفضون الكآبة، والضحك له سر لايدركه عديم الخيال!

ولو تفرست فى النغم لوجدته لحناً يربط الروح بالجسد.. معتم مضىء.. يتتهدج.. به نبض.. وله إيقاع.. يصيبك بالقشعريرة. ثم الدفء.. فتصيبك رجفة، فتزحزح قدماً ثم تحركها، وتحرك الثانيه، كأنك مأمور برغبتك..

والتراشق فى الكلمات، والتتابع فى النغم، يهزك ويهدهدك، فلا تملك إلا أن تحرك يدك أيضاً. وضرب الموسيقى يربط بين أقدامك ويديك، فتهتز وتضرب بيدك على أى شىء..

المائدة أو صدرك ..

ويغطى الغناء على كل صوت وكل حركة، ويتخفف الحاضرون من أحزانهم، كما يتخفف المصيفون من ملابسهم. فلا يكترث أحد

اصطدام الأكواب.. أو زحزحة الكراسى. حين يتمايل السامعون من شدة التوتر أو الغناء . ولا يكترث أحد بالسقاة! رفعوا الاكواب أو وضعوها! ملئوها أو اختلسوا منها رشفات ..

حلال عليهم !

فكل شيء مباح فى صالة الطاووس !

ويا للانس والطرب !

كأن القاعة تطير .. والجالسون يرفضون أن يلمسوا الأرض بأقدامهم.. يريدون أن يبقوا فوق الأرض. ولو شبراً واحداً على الأقل..

ويتدفق دمك كأنه نافورة فى يوم احتفال! ويبتلع بعض الحاضرين أكوابهم، وتتلاحق الكؤوس بدلاً من أن تتباعد وتدرك أن بعضهم لم يغرق أحزانه بعد. أو لازالت به بقية من أحزان لا تذوب..

ويحس كل نشوان بقوته. وهى ليست فى الحقيقة قوته. انها الخمر والطرب.

وينفلت العيار ..

فتقف سيدة زنجية سمينة، كانت تجلس فى عائلة. والصالة مليئة بالعائلات ..

استبد بها اللحن، وأثارت الأغنية أشجانها ووجيعتها. فلم تستطع الجلوس.. وقفت تهتز على الإيقاع، وهى ترفع يديها. والناس

يتسامحون. وكأنها تصلى.. لأن فى وقفتها شفاعة، وابتهالاً، وإخلاصاً.. وان قل الأدب!

ثم انتقلت المغنية الى دور فيه خلاعة.. ودلال غير مكشوف:

ـ اشمعنى أنا أقول ممكن .. وأنت تقول مستحيل !

ولم تكد الصالة، تسمع هذا اللحن حتى ماجت من فرط المرح. ولكن الفرحة لم تتم.. فقد خرجت أصوات السكسفون النحاسية والأوتار الحزينة، تنقل المتفرجين من مزاح الى نواح وكأنها موجة ثقيلة تدفعهم ولا يملكون لها مقاومة !

ويغنى المغنى الذى كان يلعب على الأوتار، والمغنية ترد عليه :

ساعات أحس ..

انى يتيم ..

ساعات أحس انى يتيم وبعيد ..

عن بيتنا ..

وساعات أحس انى فى العلالى ..

نسر عالى

رميت على الجنب غلبى

وحدفت قلبى ..

فى العلالى ..

تدفنونى فى الغرب

تدفنونى فى الشرق ..

هنا .. وهناك ..

صوت الطبل فى ودانى ..

عشان باحس ..

انى .. يتيم ..

ووحدانى ..

وطار صواب الحاضرين .. وعلت الموسيقى، فأخذ العازفون يضربون الأوتار فى نشاط عجيب. كلما فاض بهم الحنان نشطت أيديهم على الأوتار، ونشطت صدورهم فى الأبواق.. حتى تحس ان الزنوج أمة زعماؤها مطربون، وقضيتها ملحنة ..

وصدق الذين قالوا لى، قبل أن أصل اتلانتا :

ـ خذ أى أربعة زنوج، من الذين يدخلون السينما أو الذين يخرجون من السجن.. أو الذين يلتقون عند نهاية شارع. وستجد انهم يصلحون لتكوين فرقة موسيقية ..

فالنغم فى دماء الزنوج ..

انه يتدفق فى طريقة كلامهم.. لأنهم يأكلون الحروف الحادة.. وينطقون الحروف الخفية.. ويخترعون ألفاظاً وتعابير، ولا تهمهم أصول اللغة الانجليزية. وهذا ما يعيبه عليهم البيض الذين ينحدرون

من أصل اسكتلندى أو ايرلندى وهم فى الغالب علية القوم فى امريكا..

والزنوج يلعبون بالنغم لعباً ..

فتسلية الأطفال عندهم هى النفخ فى الأبواق، وتسلية الامهات هى انامة الأبناء على أغانٍ تردد الاساطير والملاحم والحكايات الشعبية الساذجة التى ترجع الى عصر العبيد، ومزارع القطن، والذين ماتوا وهم يهربون.. أو ماتوا لأنهم لم يستطيعوا الهرب.

وقد أصبحت الأغانى الزرقاء، والأغانى الروحية، وموسيقى الجاز مبعث الفخر عند الزنوج بل ومبرراً للاستعلاء على البيض.

فقليلاً ما تجد فرقة جاز فى امريكا، لا عبوها من البيض.

وقليلاً ما تقبل فرقة زنجية ان تضم الى أعضائها نافخ بوق أبيض..

فهم يقولون بصراحة وكبرياء :

ـ الموسيقى لا تجرى فى دمائهم !

ونسيت كل ما حدث لنا فى خارج قاعة «الطاووس».

وانسجم صديقاى الهنديان على النغم.. وانتبهنا لما نرى ونسمع.. وقد توالت علينا الوان الغناء، كأنهم ينهلون من نهر متدفق الشباب. ولم يتركوا باباً، ولا معنى، ولا خلجة إلا أصابوها.. فى نشاط!

وإذا بالساقية الزنجية، وقد لبست ثوباً لسيدة ارستقراطية من علية القوم. تبذل صدرها، واحتشم كسمها.. فزاد من روعتها انها تجمع بين الحشمة والتبذل فى توازن محسوب.

ومالت علينا الساقية تهمس كلاماً لا نفهمه فهى تأكل الكلام أكلاً. وفهمنا ان فتاة قريبة منا تطلب منا ان ننتقل الى مائدتها المجاورة..

ولم نفهم من هى.. ولماذا تطلب ذلك..!

ولكن المسافة لم تكن طويلة، إذ لا يفصل بيننا سوى متر واحد.. فى هذا الزحام الصاخب..

وإذا بالفتاة، وقد اقتربنا منها تلبس نظارة سوداء قاتمة، وتسلم علينا، وتقدمنا الى صديق وصديقة..

والصديق شاب يبدو انه من الاغنياء. ويبدو من اطمئنانه فى جلساته انه يشرف «مالياً» على هذه الجلسة على الأقل!

وصديقته سمراء صبغت شعرها باللون الاصفر.. فاشمأز نظرى، أول الامر،من هذا التناقض الظاهر، وان استرعى انتباهى تصميمها ان يكون جسدها أسمر، وشعرها أشقر!

ولكن تبادل التحية الودية، وكأننا أصدقاء، جعلنى لا أقف عند هذا التناقض طويلاً.. وأن كان له مغزى لم أدركه على الفور.

وأشارت إلينا الفتاة الثانية، من وراء نظارتها السوداء، وكأنها تأمرنا، وتتوقع الطاعة على الفور..

ـ اجلسوا..

فجلسنا !

والنظارات السوداء فى الليل موضة امريكية، تستبد بأجمل الفتيات، وهوليود ترى ليزتيلور أو مارلين مونرو ومير نالوى وغيرهن. يلبسن نظارات سوداء غامضة، فى عز الليل، حتى أصبحت لا ترى جميلة فاتنة إلا وغطت عينيها بنظارة سوداء.

وكأن كل جميلة تريد أن تقول لك :

ـ ما فائدة الجمال ؟

وكانت الفتاة من هذا النوع الذى يبكى على جماله فهى تشبه التفاحة الناضجة، المفرطة فى النضوج، حتى تخشى على جلدها الناعم من العطب. ولابد أن يصيبها العطب ما دامت بمثل هذا الجمال.

واحترت من أين أبدأ فى النظر إليها. ففى كل ركن راحة وارتواء!

عيناها واسعتان، صممت على أن تزيدهما رتوشاً، ورموشاً طويلة، مكحولة كحلاً طبيعياً.

فجاء مكياجها كمن يحسن خطه، ويبذل فيه عناية وفنا.

وكان واضحاً ان الفتاة مفرطة الجمال، وانها تعرف ذلك وان أى كلام فى جمالها أو ثناء عليه كلام معاد.. فسكتنا، ولم يتكلم أحد.

ويبدو انها تعودت دهشة الناس من جمالها، وتعودت أن تنعقد ألسنتهم على هذا النحو الغريب.

فبدأت تتكلم.

فإذا بها تلوك الكلام، وتنطقه على طريقة بنات الجنوب، اللاتى يرسمهن تنيسى وليامز فى مسرحياته أو أرسكين كالدويل فى رواياته.. والتى تحاول مارلين مونرو أن تقلدهن، وأحياناً تصيب!

فالكلام همس لين وحنان دفين. والكلام لا تعرفه ان كان كذباً أو صدقاً..

ماذا يهم أن يكون كذباً، متى كان الكذب على هذا الحال، وبهذه الطريقة..

وسألتنا الفتاة من أى بلد أتيتم؟ فأجبنا ..

فقالت :

ـ وهل أعجبتكم الموسيقى ؟

فقلت :

ـ هائلة.. ليس بعد هذا كلام ..

وأنا أنظر اليها !

فابتسمت ..

ومالت وهى تلبس نظارتها السوداء، ولا زلت أرى عينيها واسعتين مكحولتين، رمشها طويل.. ظله على وجنتيها، يلقى لوناً يشبه فى ملمسه الخوخة الجميلة.. الناضجة.

وقالت مبتسمة :

ـ لا أقصد هل أعجبتكم موسيقى «هؤلاء»؟

فقلت : وأنا أقصد اطالة الحوار، بدلاً من السكوت والإعجاب فى صمت.

ـ إنها عالية !

فقالت : ألا تعرف سر ذلك.؟

الزنوج فى ولاية اتلانتا كانوا يعملون فى مزارع القطن، وقد ورثوا أغانى أفريقية الأصل. وكان أغلبهم يموتون فى السفن الشراعية قبل أن يصلوا الى الشواطىء، والباقون ينقلون الى المزارع ليعملوا.

والذين يحاولون الفرار تكفيهم رصاصة.

وكانت من تقاليد السادة ان يضربوهم بالسياط حتى يغنوا بصوت عال.

وتململت منزعجاً، فقلت :

ـ لقد كان الصمت أو الهمس محرماً عليهم. لأن السادة كانوا يخشون أن يتهامسوا، فيتآمروا على الهرب.. ولذلك كانوا يدورون عليهم بالسياط حتى يرفعوا عقائرهم بالغناء.

وهذا هو السر الذى يقولونه عن اسباب هذا الغناء الحزين العالى.. الذى توارثوه جيلاً بعد جيل.

وأحسست انى أريد أن أسألها، ولكن لماذا تقولين «هؤلاء» بلهجة الإشارة الى الزنوج..

ومن أى جنس أنتِ؟

وكنت أقلب النظر فى شعرها الأسود، فإذا به ناعم نعومة «غير زنجية». العيون اسبانية والشعر هندى فاحم. واللون مكسيكى أو خليط من الشمال والجنوب..

ولا تستطيع أن تعرف حقيقة أمرها بسهولة، ولعلها أدركت ما أريد،

فقالت :

ـ أمى فرنسية، وأبى مكسيكى.. وجدتى..

وأخذت تذكر اسماء جنسيات وأجناس، وكأنها خلاصة مغامرات عنيفة تشبه هروب نابليون، أو مغامرات دون جوان.

قلت لها، وأنا أحاول أن أجس النبض عن المهنة التى تشغلها :

ـ ولكنك بهذا الجمال تستطيعين ان تذهبى الى هوليود.

فقالت مشمئزة :

ـ ولكنى باردة !

فلم أفهم شيئاً .

وفتحت حقيبتها، وهى تدفع لى بطاقة !

فإذا بها قد كتبت عليها اسمها :

ـ بات .. بيكو .. أى بات «الطاووس» وهو اسم المغنى الذى نجلس فيه. وتحتها بحروف أنيقة.. المهنة :

ـ مسافرة !

عصر السرقة

بدأ لى كل شىء «معبأ ملفوفاً» ..

الأكل فى علب محفوظة من القصدير.. المشروبات فى زجاجات أصبحت شهيرة كنجوم السينما! والطبيخ يحملونه دائماً فى أكياس من الورق. القمصان يضعها المكوجى فى كيس من النيلون. المخلل أو الزيت يعبثونه فى ورق مقوى.!

حتى الانسان .. «معبأ» فى سيارات ..

ويكفى ان ترى هذا الحشد السريع من السيارات الذى يسير أمامى :

متى يلتقون كتفاً لكتف !

ان هذه الملايين العديدة «معبأة» كل واحد لوحده فى فرديته، أو فى سيارته، كأنها معطف من الحديد..

والسيارة عند الأمريكى تشبه الفراندة عند بعضنا. يحس انها ملحقة ببيته. ينتظر فيها انفراج نسمة الليل من كتمة الصباح. وكذلك الأمريكى.. السيارة هى كل شىء فى حياته المتحركة القلقة..

انه يأكل فيها، ويشرب، ويحب، ويشهد السينما ـ فى حفلات خاصة للسيارات ـ ويقبض الشيكات، لأن البنوك فتحت أبواباً تطل عليك فى سيارتك تسلمها الشيك وتقبضه، وأنت فى مكانك، على عجلة القيادة..

وكنت أحياناً أحس أن السيارة للامريكى أكثر من مجرد فراندة. أنها عند الرجل بنطلونه!

لذلك تشهد فى السيارات المارة أمامك شماعات كثيرة. وملابس كثيرة وقمصاناً. وكأنهم يلبسون، ويقلعون فى السيارات.. وضحكت.. فماذا كان يمكن لعصابة آل كابونى أن تصنع لولا هذا الاختراع المبارك.

ان كل حديث فى سيارة مختصر والامريكيون ملوك الاختصار.. كل شىء وله رمز.. وكل رمز له حرف.. وكان مفكريهم يفكرون فى سيارات. كل شىء له طابع مؤقت.

وأخذت أتدبر هذه الظاهرة الامريكية وأنا فى طريقى الى «مدينة الأشباح».

وهى مدينة تشبه «اللونابارك» أو مدينة الملاهى.

وكنت قد لمحت سيدة شابة، تسوق سيارتها وهى تلبس الشورت القصير جداً، وكأنها فى منزلها !

ومدينة الأشباح تستقبلك بالموسيقى والتهليل ..

والمدينة ليس فيها أشباح، ولكن صاحبها أراد ان يعيد تسجيل الماضى القريب من حياة الامريكيين، أيام رعاة البقر، والهنود الحمر. فأحضر من أنحاء امريكا كلها كل ما تبقى فيها من «روبابيكيا» وأقام مدينة بأكملها تصور منتصف القرن التاسع عشر.

الحوارى صغيرة ضيقة جداً..

على مشارف المدينة مطعم، تدخله من هذا الباب القصير الذى يعلو على الركبة، ويصل الى الصدر، ولا يغلق، والذى اعتاد ان يقتحمه أوغاد السينما بضربة من قدم، وطلقة من مسدس.

وفجأة يصل البطل لينهى «القعدة» فى دقيقة!

وبعد المطعم، تجد بنكاً، ومطبعة بدائية، تطبع باليد، وتكتب باليد!

ثم تفاجئك التماثيل الشمعية لرجال امريكيين بدت عليهم الغلظة.. أطلقوا لحاهم، لأنهم يعيشون فى الصحراء قبل ان يمد الحديد، وقبل ان تصل المياه المنتظمة.

وهؤلاء الذين كانوا يبحثون عن الذهب فى كاليفورنيا .. وبعضهم وجد الذهب، فجن جنونه.. وترى الجنون ناطقاً فى العيون الواسعة الغليظة النظرات.. ولو أنها عيون من الشمع والى جوار التمثال تمثال آخر لسيدة من طراز القرن التاسع عشر.

شقراء رفعت شعرها الى الوراء، لتظهر رقبتها البيضاء الناصعة هذه المرة من الشمع. وأنزلت ثوبها فوق كتفها.. فكشفت عن صدر «عظيم» وأسدلت ثوبها حتى أصبح يتجرجر على الأرض، ويا للغرابة من هذه المبالغة فى اسقاط الثوب من أعلى الصدر وإسداله تحت القدم..

ولكنه الإغراء.. ولا أقصد إغراء المرأة.. للرجل، ولكنه إغراء الذهب الذى فى جيب الرجل.. للمرأة..

والتمثالان يجلسان على مقعد.. فى عرض الطريق، يكشفان قصة هذه المنطقة باختصار..

الذهب، والمرأة، والاقتحام..

وفى مدينة القرن التاسع عشر بأمريكا تحس ان أمريكا اكتشفت سر سحر الملابس الداخلية.. فكل شيء يكشف ولا ينكشف أو يكشف حتى يخطف: وهذا الدلال المصطنع، الذى ينفث العطر الساخن والمساحيق والطلاءات.. التى أصبحت فيما بعد احتكاراً لهوليود، ليست بدعة طارئة..

انه ميرات من عصر البحث عن الذهب ..

وكدت أشم هذا العطر من تماثيل الشمع ..

ووقفت أمام التمثالين الشمعيين ضاحكاً ..

فقد جلس الى جوارهما عجوزان.. رجل وسيدة.. الرجل الحى فى حضن السيدة الشمعية.. والسيدة ـ ويبدو انها زوجته ـ فى حضن الرجل الشمعى..

فكان التناقض مضحكاً.. وضحك الزوجان.. لأن بعض الأقارب يلتقطون صورهم «تذكاراً» من مدينة الأشباح!

وعجبت لهذه «التقاليع» التى يصمم عليها الامريكيون، ويحيونها ويعتبرونها علامة الحرية الفردية..

فلا شك ان تلك الرقصات الغريبة التى تطيح بشبانهم كل موسم.. وتلك التقاليع المتعاقبة تغذى فيهم روح الفردية ال أقصى حدودها.. الى حد تشجيع النزوة..

وقد حكى لى صديق تذكرت قصته بعد أن شاهدت لسيدة التى تسوق السيارة بالشورت، وبعد ان شاهدت العجوزين اللذين يلتقطان صورة منافية للحشمة، وهما فخوران.

وهى قصة سائق أو توبيس، كان من خيرة السائقين الذين أمضوا ما يقرب من العشرة أعوام، يشتغل فى خط واحد فى مدينة سان فرانسيسكو..

وذات يوم، طرأ له خاطر غريب.. نفذه على الفور..

قرر أن يسوق سيارته، بعد أن أخلاها من الركاب، وان يسير بها ولا يتوقف مهما كان الثمن..

ومشى فى شارع لا يتوقف بين سان فرانسيسكو الى لوس انجيلوس.. وهى مسافة تشبه المسافة بين القاهرة وأسوان.

وقامت قيامة الشركة ..

وأبلغوا البوليس .. سرق السائق سيارة !

وقالوا : جن جنونه .

وقالت الصحف : أغرب مغامرة لسائق فى تاريخ السيارات الخاصة والعامة!

وقبض عل الرجل طبعاً ..

وسأله البوليس :

ـ لماذا فعلت ذلك ؟

فقال : من شدة السأم ..

فقطب رجال البوليس جباهم، ولم يفهموا .

وسألوه : لماذا لم تعد ال محطتك كالمعتاد !

فقال : جوابى هو سؤالكم.. لأننى أعود كل يوم الى محطتى كالمعتاد..

فزادت إجابته من حيرة رجال البوليس.. وقالوا انه لص فاشل.. من هؤلاء الذين يسرقون التماثيل والمسلات ويحاولون سرقة الكبارى.. ومن هؤلاء نجد الكثيرين!

لصـوص عـاديون، لكنهم مـصـابون بـجنون العظمـة.. بدلاً من ان يسرقوا سيارة.. يسرقون أوتوبيساً!

والتقطت الصـحف هذه القصـة، فنفـخت فـيـها وكبـرتهـا.. حـتى أصبحت مانشيتاً..

وهاج كثيرون من الامريكيين، وماجوا ..

وقالوا : اتركوا السائق، انه أروع سائق عرفه تاريخ الأوتوبيس..

انه له شخصية .. ان له فردية ..

انه رجل يسترد حريته، بعد أن أعدمها السأم، وقتلها الروتين!

وبالفـعل، نجا السـائق من المحاكمة، بعد أن تنازلت الشـركة عن الدعـوى، وأقـام لـه زمـلاؤه حـفلة، وكـتب الكتـاب يدافـعـون عن حـرية السائق.. الذى سرق أتوبيساً!

ومـشـيت فى حـارة صـغيرة، تتصـدرها حـانة مظلمـة وفندق.. من الخشب.. به بلكونة.. وإعلان عن : المبيت ليلة واحدة والدفع مقدماً.

وإذا بصفارة قطار تنطلق من المدينة، والناس يتصايحون :

ـ القطار أو شك أن يبدأ ..

ولم أعرف فى البداية ما الذى حدث ..

وأى قطار يتكلمون عنه ..

فقد لفت نظرى بيت صـغير، وقد تدلى من نافذته تمثال شمعى.. أو

على الأصح تدلى قدمه فقط.. دلالة على أن شيئاً خطيراً يحدث داخل المنزل، ويوشك واحد من سكانه أن يقفز بنفسه من النافذة!

لعله حريق .. أو حادثة سطو !

ودخلت الحارة الضيقة، وصوت القطار الذى لا أفهم سره يهز المدينة..

وإذا بأناس يتجمعون حول قفص، لا يتعدى قامة الرجل إلا قليلاً..

القفص يشبه الأقفاص التى يضعون فيها حيوانات السيرك ..

وقال الناس : هذا هو سجن المدينة ..

لقد كان الزاحفون على الذهب، يتقاتلون، وكان القانون لم يتأكد بعد، الفرد يضع قانونه بيديه، حتى السجن لم يصبح بعد سجناً من قضبان، وحجارة، وحراس ..

مجرد قفص ..

وأسرع بقية المتجمعين نحو قطار المدينة الذى لم ينقطع عن الصفير ..

فإذا به قطار يشبه قطارات القرن التاسع عشر التى كانت تقطع الطريق أبطأ من الدواب.

وإذا بالسائق يلبس ثياباً مهلهلة، وقد لطخ وجهه بالشحم وذرات الفحم حتى أصبح سائقاً حقيقياً..

والكبـار يندفعـون الى القطار، قـبل الأطفال، أو يـحملون أطفـالهم، ويلقون بأنفسهم الى العربات، كأنه آخر قطار بعد منتصف الليل.

ودخلنا عربة، والجميع يتضاحكون، وكأنهم ينتظرون إطفاء شمعة فى تورته فى حفلة عيد ميلاد..

والأطفـال أصـبـحـوا فى هـذه الرحلة المزيفـة هم الرجـال الآمـرون وصيـحـات الأمهات أو الآباء لا تتـوقف مـحـذرة، أو ضـاحكة، والجـميع مـسـتعـدون للرحلة، مع ان الرحلة تسـتـغرق خـمس دقـائق أو سـتـاً. واهتزت عربات القطار، وتحركت وعلى الوجوه بشاشة الانطلاق!..

ولم يكد يتـحـرك القطار، حـتـى جـاء «قـاطع التـذاكـر» يلبس ثياب القرن التـاسع عشر.. زرقاء، على القبعة نقش مـذهب، وعلى الذراع اشرطة وعـلامـات، ويلبس نظارة مسـتديرة ـ لا تدرى من أين أتى بها لأنها تحفة قديمة ـ ولا تدرى من أين أتى صـاحب المدينة بهذا الرجل لأنه نفسه تحفة وكأنه كمسـارى على الاستيداع، يتسلى بما كان يعمل به فى سابق شبابه وعنفوان عمره ..

وفجأة دخل علينا مهديهم المنتظر، الذى كان يترقبه الجـميع والذى ركبـوا من أجله فـإذا به شـاب قـاطع طريق.. يـحـمل مـسـدسـاً زنته عدة أرطال، لا يمكن ان ينطلق زناده بأصبع واحدة..

وقال الشـاب الذى يغطى وجهه بإيشارب أسود . وقد لمعت أسنانه من وراء هذا الحجاب :

ـ نقودكم وجواهركم على الفور!..

وصفر القطار فى هذه اللحظة وسائقه مزهو وانخلعت قلوبنا ..

وضحك الرجال وقام بعضهم، وكأنهم «يعافرون» مع قاطع الطريق، الذى كان يقطع طريق أجدادهم.. فى هذا المكان بالذات..

وتبادلوا بعض اللكمات.. كأنها حلبة استعراضية.. والقطار يعود الى محطته، لينزل فوج، ويطلع فوج.. ليمثلوا هذه التمثيلية الصغيرة على «الطبيعة» ..

ولا يزال فى الأطفال بقية من خوف، وفى النساء بقايا من الهلع المستحب، وفى الرجال شهامة مزيفة!

ونزلت ضاحكاً نصف ساخر ..

فإذا بسيدة شبه بدينة، قارب عمرها من الخمسين، ولكنها تصبغ شعرها بدقة، وتزجج حواجبها بتفنن.. وتكشف عن صدرها مثل ساكنات مدينة الأشباح.. تكاد تندس خلسة بين بنات الثلاثين أو تندس ـ بعد التنازل ـ بين نساء الأربعين ..

جلست مكانها .. لا تريد ان تنزل ..

وبدا لى من همهمة النازلين الذين لا يحملون معهم أطفالاً ولا يصحبون معهم سيدات، أن هذه السيدة تركب منذ الصباح، وتدفع أجرة السفر فى قطار المفاجآت كل مرة..

وبدت بجوار النافذة.. تصلح أصباغها كأن اصبعها أصبح ساحراً يحرك يده بطريقة خاطفة..

وأصلحت ثيابها .. وتحركت فى قعدتها، تستعد للمرة التالية ..

وتكوم بعض الشباب الذى يتطلع فى مثل هذه المناسبات، فحدجتهم بنظرة حاسمة. وكأنها تقول لهم :

ـ وأنتم مالكم.. عايزه أخاف تانى ..!

الغريب والصمت

ابتسمت لنفسى مشفقاً عليها، أو مغتبطاً بها لا أعرف،

وكأننى كنت أرى نفسى، رجلاً غريباً طويل القامة يحمل حقائبه بديه، ويميل مع ثقل الحقيبتين، كأنه سقاه يحمل دلوين من الماء!

فقد كنت أشق طريق فى مدينة «الباسو» لأول مرة ..

غريب لا يعرف أحداً، ولا يعرفه أحد ..

ويبدو أن السفر الكثير يعود الإنسان أن يتحدث كثيراً مع نفسه.. ويكشف بعض الجوانب التى لم يدركها أو لم يعبأ بها فى حياته العادية ..

فالمسافر يقظ، ينام بعين واحدة ..

وبدأ كل شىء لى فى المدينة مقفراً ..

الحركة فى الشارع الرئيسى تكاد تنعدم.. أغلب الدكاكين نائمة أو مقفلة.. أرخت ستائر حديدية حديثة أنيقة.. بل والطيور فى السماء قليلة لغير ما سبب.. وكأن المدينة قد هجرت منذ ساعات..

اليوم عطلة ..

واكتشفت أن اليوم قد عام فى ذاكرتى. ولا أعرف فى أى يوم أنا، هل هو السبت أم الأحد..

وماذا يهم ..

انك فى الغربة تتخفف من كل شيء.. ومن كل ارتباط.. حتى من ذلك القيد الغريب الأبدى وهذا التقسيم الحسابى.. سبعة أيام فى كل أسبوع.. تستطيع أن تختلس منها يوماً أو تطرحه.. أو تضيف إليها يوماً ما دمت لا تعرف أيام الاسبوع على التحديد..

وسرت فى الطريق، وأنا أفكر، وخطاى تتعثر..

ـ ما هو السر؟

ألاأنك تستطيع أن تنام أسبوعاً متوالياً.. ويا للسعادة، أو أن تصحو سبعة أيام بلياليها.. ويا للفجور!

سيد الموقف، ومالك وقتك؟

بدأت أحسب الحسبة، لقد كان مقرراً أن اسافر الى الجنوب «الجوانى» فى أكتوبر.. وتذكرت أخيراً اليوم.. الرقم.. ولكننى لم أستطيع أن أتذكر هل هو يوم سبت أم يوم أحد!

المهم أن أسير.. وأن أجد مكاناً لى فى هذه المدينة المقفرة.

ولكن ماذا يهم الآن ؟

وهبطت على نسمة من الغبطة رغم تعبى ..

غبطة السفر إلى مدينة لا تعرفها ولا تعرفك، فلا شك أن فى كل انسان نصائح قديمة تتكوم فى داخل نفسه كأنها حيوان شبه أليف.. آلاف النصائح التى لقنها لنا المعلمون والآباء والأمهات..

وأمهاتنا يجزعن على «الضنى» ..

ـ لا تبتعد عن نهاية الشارع !

ـ احذر العبور عند ملتقى الطرق !

ـ لا تبعد كثيراً عن المنزل حتى لا تتوه ..

كل هذه النصائح التى تهضمها وترسب فى جوفك مخاوف، تذوب عندما تسافر.. لأنك تستطيع أن تبتعد عن نهاية الشارع، وتستطيع ان تعبر الطرق.. بل وتستطيع أن تتوه سعيداً ..

انك ترفع حظر التجول الذى ترثه منذ الطفولة ..

وكدت أضحك مستلقياً تخلعان لولا أن الحقيبتين ثقيلتان. ذراعى وتشدانى الى الأرض ..

حين تذكرت الأفلام الامريكية العادية التى يبدأونها بموسيقى منفردة، أو أغنية حالمه، وصوت منفرد وحيد.. ويظهر البطل وحيداً يدخل مدينة لا تعرفه، لا يملك فيها شيئاً سوى الجرأة أو الوقاحة، والوقاحة عادة فى امريكا مسدس كبير يطل من حزام سميك..

وتذكرت البطل فى روايات رعاة البقر ..

كـيف يصل الى المدينة لأول مـرة.. امـا هارباً من مطاردة أو «هاجـاً» لأى سبب.. ثم تقابله المدينة بالكراهة.. لأن المدينة تسيطر عليها عصابة، ويصطدم البطل عادة بالعصابة ويفوز عليها، ويغادر المدينة.. بعد أن يفوز ـ عادة ـ بفتاة بيضاء حزينة..!

والقصص «الغربية» على ما فيها من افتعال تصوير لامريكا فى هذا الجزء.. الفاضى المتسع ..

ان ما أراه الان هو نفس الجو الذى يظهر فى أفلام رعاة البقر ..

فورائى جبل.. وصحراوات.. وفراغ..

وأمامى مدينة، بيوتها صغيرة، ومقاهيها قليلة، وبنوكها عديدة، وكنائسها قديمة..

وضحكت لأننى لم أكن أضع فى فمى تلك البوصة الشعبية التى يضعها بطل الأفلام الامريكية فى فمه، يلوكها ثم يقطعها بأسنانه ثم يقذفها على الأرض.. وهو يفكر وحيداً..

ولعلها عادة امريكية ترمز الى المسافر الذى يقع طريقه فى قفار، وصحراوات، ثم يقتطف أى نبات على الطريق، ويضعه ـ نصف نائم ونصف حالم ـ فى فمه..

ان هذه القشة تلخص الرحلة الطويلة التى سبقت مجىء «البطل» الى المدينة..

لقد كان وحيداً سارحاً ..

ولكننى وصلت الى مدينة «الباسو» فى أقصى جنوب امريكا، على حدود المكسيك، وليس فى فمى قشة، وليس فى حزامى مسدس..

ودخلت المدينة متهيباً، نصف متعب !

ولم يطل الوقت حتى اكتشفت ان كل شيء فى المدينة يختلف عن بقية المدن الامريكية فيما عدا الإعلانات، والمحلات التجارية، والطرق الواسعة ومحطات البنزين على الطريق، والكنائس التى تشبه الصيدليات: الخدمة فيها ليلاً ونهاراً.

واغمضت عينى قليلاً .. وانا أكتشف سر الخلاف. إنه الضوء ..

ففى نيويورك مذاق أوروبا، ألوانها داكنة قاتمة.. ضباب ودخان وسحاب.. مكاتب مغلقة، أنوار كهربائية.. ظلال قاتمة مكتومة.. أما الشاطىء الغربى ــ فى كاليفورنيا ــ فتنفتح فيه الألوان، وتصفو كأنما كل شيء، غسله ماء المطر ألوان صافية زرقاء حمراء. فيها صفاء المحيط العظيم وعمقه، وألوان الأثرياء النظيفة.. ولهذا يعيش فيها أهل الفن الذين يتمتعون فى هوليود.. ويعيش فيها اصحاب المعاشات من كبار الجنرالات! أنها جنة الأرتيستات.. والمحالين الى المعاش..

ولكن الجنوب يختلف.. فألوانه مكسيكية.. دافئة حارة.. صهد الضوء، وحرقة الشمس.. واصفرار الصحراء.. وكان يكفى ان نرى الشمس فى السماء.. انها تكتمل عند الغروب كما لا تكتمل فى أى مكان آخر.. السماء عالية مفرودة كقلع المركب فى عز البحر وعز

السرعة وسط السفر. الريح تفردها تماماً. والهواء نسمة ضعيفة كأنفاس الطفل.. والألوان عظيمة تشبه ألوان الكاميرا ..

وأدركت سر جودة التصوير الفوتوغرافي في امريكا.. انه صناعي.. والصناعة أسهل من الحرفة.. ولكن هناك سراً آخر ..

والألوان هنا ألوان فوتوغرافية كالتي تراها في ألوان الأفلام الضخمة.. الألوان غير مخلوطة.. ولكنها جميلة وفخمة..

وهذه هي امريكا ..

الفرق بين ألوانها وألوان اوربا هو الفرق بين الوان الفوتوغرافي والرسام..

والفرق بين شاشة السينما الملونة ولوحة من لوحات سيزان أو جوجان هو الفرق بين امريكا واوروبا.

اللون في لوحة سيزان أو ماتيس فيه رعشة الفنان.. عصارة النفس. لون داخلي يمتزج بلون خارجي، كما يمتزج نهران. اللون مدروس مطبوخ. لا يدرك سر «تلقيمته» سوى الذي يحسه ويعانيه! لأنه عذاب ذاب في عذوبة وحنان.

ولكن اللون الذي أراه بسيط غير مركب. عظيم. فخم. ولذلك فكل شيء في امريكا «مليح» كصور الكارت بوستال!..

والسحاب جميل بهيج بنفسجي.. والسماء صفاء والجو «سداح مداح»!..

وأصابتنى رعشة من التهيب ..

وهذا هو الجنوب. الذى يعيش على البترول، أغنياؤه أصحاب ملايين. أعظم المغامرت فيه كانت البحث عن الذهب. وحين انتهى الذهب بدأ البحث عن البترول وفى هذه الأرض انسان جديد عنيف.

بدلاً من أن يرفع يديه إلى السماء. يحفر الأرض بأظافره.. لأن الأرض هى التى تهبه كل شىء.. الذهب والبترول..

وانسان الجنوب يختلف تماماً عن انسان الشمال فى امريكا.

فهنا مزارع القطن بآلاف الفدادين. وهنا البترول وهنا ارستقراطية عنيدة ترجع الى أول أبيض ينزل الى امريكا..

وفى امريكا فرعان ارستقراطيان. فرع فى ايرلنده، نزل فى أقصى شمال امريكا.. ومنها عائلات كينيدى، ولودج وغيرهم.. وفرع نزل الى الجنوب.. الى فرجينيا وجورجيا..

والارستقراطى فى الجنوب مزارع ومالك جبار. سيد عنجهى، وإقطاعى متسلط، وحين فاضت فى أيديهم الأموال أصبحوا يحتقرون الشماليين ويستعلون عليهم..

وتكساس مثلاً ولاية اشتهرت بالكبرياء.

الرجال طوال أشداء.. يلبسون الثياب السوداء فى الليل.. وثياب رعاة البقر فى الصباح. يعتقدون ان تكساس أم الدنيا. أغنياؤهم متكبرون. وفقراؤهم فشارون.

وتذكرت حين نزلت الى مطار «هدسون» عاصمة تكساس.. ذلك التمثال المضحك الضخم الذى وضعوه داخل المطار، يشبه المسلة فى طوله، ولكنه تمثال لراعى بقر، مسدسه فى وسطه، وعلى راسه قبعة طويلة ملوية فوق حاجبيه، وعلى وجهه ابتسامة الزهو.. وتحت هذا التمثال الذى يكاد يبتلع المطار كله تحت شعار أهل تكساس الشهير :

ـ راجل واحد يطفش مظاهرة !

ولا شك ان آية الفردية تنعقد لأهالى الجنوب ..

كل يشق طريقه . على طريقته.. بالمسدس.. بالعنف، بالضرب، بالوقاحة، بالجرأة، بالذهب، بالعافية..

وتهيبت، وأنا أحمل حقائبى.. فقد بدأت الأسئلة فى قلبى تتوالى :

ـ لقد جئت للجنوب لبحث مشكلة الزنوج !

ـ لماذا يرضى الزنوج بشقائهم ..

ـ وهل يرضون به !

ـ ان مزارع القطن لازالت تشغل العمال اليدويين على طريقة تشبه العبيد القديمة!

ـ انهم يسمونهم «الذين تعرق ظهورهم» لأنهم يحملون على ظهورهم أطناناً واحمالاً وأثقالاً.

وتذكرت وأنا أسير، أغنية زنجية قديمة منذ أيام العبيد أى منذ مائة سنة. لايزال البعض يرددونها.. حتى الآن لأن فيها مرارة وفكاهة، كطعم مشروب الزنوج..

- سيدى الكبير وعدنى

لما يموت يعتقنى

لكن دابابن ناوى يعيش على طول

بدل الشهر شهرين

ودقايق

وبدل السنة سنتين

ودقايق ..

وباين مش ناوى يعتقنى !

وانقلب الجو، مع أن السماء لا زالت صحواً، والنسيم لا يزال هيناً

وبدا لى الهدوء فراغاً شاسعاً وصمتاً مخيفاً.

وقررت أن أقف، لأبحث عن أى سيارة تنقلنى الى داخل المدينة المهجورة الواسعة ..

وتأكد لى أن اليوم يوم أحد.. والمدينة صامتة.. والعربات لا تصل الى هذا الطريق المهجور ..

وعرجت على طريق جانبى.. به بضعة اشجار.. وجدول ماء.. يبدو

وعرجت على طريق جانبى.. به بضعة اشجار.. وجدول ماء.. يبدو انه يأتى من فوق جبل.. أو أن صاحب الملك شقه بطريقة الآبار الارتوازية، ولكن ماذا يهم .

فقد وضعت حقائبى .. انظر .. تحت ظل الشجرة الخضراء التى يهتز ورقها دون ضابط .

وهدأت نفسى من هواجسها ـ فى هذه المدينة الصامتة، حين نظرت الى الماء القليل الذى لا يتوقف عن الجريان رغم اصطدامه بالحصى والصخر..

وقررت أن أؤجل كل شىء.. كل اهتمام وكل هم. أن اضعها على الأرض.. كما وضعت حقائبى على الأرض.

وبدأ إحساسى بالوحدة يفتر ..

لأننى كنت أنقل نظرى بين الشجرة والماء.

وأحسست كأنى اغسل عينى فى تلك الماء ..

وإذا أحسست بالوحدة ـ وهذه تجربتى بعد طول سفر ـ وكنت غريباً، لا تجد من تحدثه، أو تهدأ إليه، أو تتفاهم معه.. فاختر أقرب شجرة، وأقرب غدير ماء ..

وأجلس الى جوارهما ..

سوف تحس انك لم تعد وحيداً حين تحس ..

أن الماء واحد، والشجر واحد.. فى أى مكان .

الهزيمة والحنان

تعلقت عيناى بالسماء سابحاً .

وفجأة، عدت أكثر من عشر سنوات، حين كنت فى الهند .

وكان أول منظر أثر فى حياتى، حين ذهبت للهند، هو السماء .

فقد كادت عيناى تضيعان فى ارتفاع السماء وروحى تذوب فى فضائها المتسع .

والعجيب اننى بعد عشر أعوام، أو يزيد، اكتشف نفس الظاهرة.

ولكن السماء نفس تلك السماء العالية المبالغة فى العلو. لا يهتز فيها ريح، أو تمر شبهة من ضباب!

أنها فى لون أزرق أبيض.. ممتقع مثل لون الطباشير !

وفى الهند، أدركت أن هذا الإرتفاع العظيم، بسبب الحرارة الشديدة وارتفاع السحاب، يوهم الأنسان بالضآلة.

فيحس بالضآلة، والخوف من الضلال !

ولست أدرى هل هو أحد أسباب التصوف فى الهند! فارتفاع السموات العلا الى هذا السمو ـ أمام العين ـ يشعر الانسان بالرهبة وشىء من الضياع..

وقد عشت سنين مع هذا التفسير، حتى فوجئت بسماء مدينة «الباسو»، التى تشبه سموات الهند فى ارتفاعها الشديد تماماً.

وغيرت رأيى .

أن السماء هنا.. ولكن البلد لا تشعرك بالروحانية.. إنها تشعرك بالوحدة القاسية.. بين اتساعها وضآلتك.

وقالوا لى :

ـ ان الباسو قطعة من اسبانيا، لأن المكسيك تبعد عن المدينة نصف ساعة وتستطيع ان تعبر الحدود بالترام. ولن يطالبوك بكثير من الرسميات. وتستطيع أن تقضى يوماً، أو يومين، ثم تعود الى امريكا.

ولم أنتظر طويلاً.

ففى المكسيك تأثير أسبانيا فى اللغة والألوان والموسيقى، وفيها مفتاح غرب امريكا وجنوبها.

فقد كانت المكسيك تحكم هذه الأراضى، حتى حاربتها امريكا، وطردتها بعد حرب عوان!

وبقى نفوذ المكسيك بعد انسحابها فى هذه المناطق.

وهناك من الزنوج من يتحدث الأسبانية، ولا يجيد الانجليزية.

ولم أنتظر طويلاً..

وذهبت سيراً الى حافة الحدود. وعبرت الميادين الواسعة، المليئة بالنوافير (تشبهاً بالمكسيك)، وان كان الامريكان قد ملئوا تلك النوافير بالتماسيح! احتفاظاً بالطابع المحلى!

ومدينة الباسو الامريكية تكاد تحتضن مدينة جواريز المكسيكية، كتفاً الى كتف.

والمدينتان لا يفصل بينهما سوى مخفر متواضع للبوليس .

وتستطيع ان تنتقل بين امريكا والمكسيك فى خط دائرى للترام.

يبدأ الخط من حافة مدينة الباسو، ويعبر بك الحدود، ويشق مدينة جوارين، ثم يعود بك ـ دائراً ـ الى مدينة الباسو من جديد ..

وامتلأ الترام بالأسبان والمكسيكيين، والسيدات والأطفال والأسبتة والحاجيات ولوازم العائلات، وفتيات جميلات شعرهن أسود، وملامحهن شرقية..

والفرق كبير ناطق بين المدينتين المتجاورتين ..

ففى الباسو حديد وزجاج ونيكل وشنابر نظارات وإعلانات.. وفى جواريز ترام وقدم وفن وكل شىء يبدو مباحاً!

وقد وصلت بعد انتهاء موعد الكرنفال السنوى.. ولكن الميادين والشوارع كانت لاتزال مزدحمة بآثاره، ملطخة بألوانه.. فالشوارع مسدودة ـ تقريباً ـ بالعربات المكشوفة، وعليها تماثيل ضخمة ودمى ملونة من دمى الكرنفال الضاحكة والساخرة! وأعلام صغيرة تهتز فوق أعواد الترام.

والتزاحم على الغرباء مسألة طبيعية ومتوفرة.

فهذا يريد أن يصورك على حصان من الخشب، وقد لبست قبعة مدببة مكسيكية، وحذاء طويلاً، ولبست صديرياً من الصوف الملون بالألوان العديدة.. النبيذى الغامق، والبنفسجى العميق ـ والأخضر الزرعى.. والأصفر فى لون المانجو..!

وهذا يدعوك الى فندقه ـ مجانا ـ باستثناء المشروب، وبالغرفة بلكونة تشرف على الميدان والمقهى، وتستطيع أن تسمع منها الأغانى الأسبانية والمكسيكية.. التى ستملأ الميدان بعد ساعات !!

وهذا يدعوك ان تشترى تماثيل خشبية، اية فى الفن، والحساسية للعذراء، أو دون كيشوت وصاحبه سانكوبانزا.

والى جوار حائط قديم، جلس مغنى اعمى شاب.. يقطر صوته بالحنان والعذوبة والحب.. يغنى، ويعزف، ووراءه «أركان حربه» وحاسبو اجره واحسانه.. وهم لا يقلون عن عشرة من الافذاذ أو الأفظاظ!

وسرعان ما يأخذك الحماس من تماثيل دون كيشوت الخشبية، وقد نحتوه فى خشب سهل مطيع، تمثالاً طويل القامة، نبيل القسمات..

نموذج من النبل «العبيط» الذى تميز به الشرقيون وقتاً طويلاً..

وتأخذك تلك الألوان الزاهية، والنقوش القليلة، فاذا بالمكسيك.. خليط من دم الثورة، والنوافير البيضاء، والبلكونات الرخامية، والدانتيلا النسائية الرقيقة!

دم عرق مسفوح! مخلوط بالنبيذ والنغم!

فالموسيقى الأسبانية تسيل فى كل أركان الشوارع، وبين الأطفال، والمغنين الأكفاء، وجوقات المتطوعين يومين فى الأسبوع.. وبقية الأسبوع، عمل بالكاد، وشوق شديد الى الموسيقى..

وبين جواريز والباسو، وبين المكسيك وجنوب امريكا ينفتح لك باب يكشف لك سر الزنوج.. وسر تفوقهم فى الشعر والموسيقى والنغم..

فلقد عاش الزنوج عبيداً زهاء مائتى عام أو يزيد.. جاءوا بهم من افريقيا، ونزلوا أول الأمر فى شاطىء فرجينيا.. وعملوا فى زراعة الدخان. ثم بدأوا يزرعون القطن.. ولكن الحزن تفجر فى ألحانهم نغماً ولهيباً وشعراً..

وقد قال لى شاعر زنجى :

ـ يكفى ان تحس أنك زنجى، حتى تحس أنك تحمل مأساة خاصة. تستطيع لو وهبت شيئاً من الحساسية أن تعبر عنها.. شعراً أو غناء..

أن مأساة الزنجى، عند الرجل الحساس، لا تختلف عمقاً من مأساة هاملت، أو دون جوان..

قلت للصديق :

ـ ولكن الجنوب يفيض بالكراهية للسود، أكثر من الشمال ..

فقال :

ـ لهذا هاجر كثيرون من الجنوب الى المشمال، حتى أن كثيراً من رجال الصناعة أصبحوا يشتكون من هذه الهجرة المستمرة.. خوفاً على «الأيدى» العاملة السوداء، ويسمونها أصحاب «الظهور المبتلة ايماء ورمزاً للعرق الغزير!

وتحدثنا عن الهجرة ..

كيف أن أكثر القصص الامريكية فيها حديث هذا الانتقال من الجنوب الى الشمال ..

فالامريكى ـ بطبعه ـ لا يحب البقاء، فى مكانه. وهو دائم السفر ..

والأبيض ينتقل من ولاية الى ولاية من باب الترف أو السياحة.. أو البحث عن عمل ..

ولكن الأسود ينتقل من الجنوب ال الشمال بحثاً عن عمل، أو هرباً من اضطهاد، أو خوفاً من عقاب.

وأكثر القصص الزنجية، بطلها يقتل فى الجنوب، أو يهرب الى الشمال..

مثل تلك القصة الرائعة التى تصور أمريكا زنجياً قتل وهرب، ثم تاب..

وتصور حياته بعد التوبة فى الشمال، بين أهله فى هارلم.

وقصص ريتشارد رايت كلها مليئة بهذا الهارب من العقاب، حين يتجمع البيض، وقد صمموا ان يقتلوه، بعد اتهامه بالاعتداء على بيضاء!

وقد حكى لى صديق زنجى، أنه لا يزال يفكر فى القصة التى سمعها وهو طفل..

كيف قتل البيض ثلاثة زنوج، واتهموهم بأنهم قتلوا رجلاً أبيض..

وحقيقة القصة أن الشريف (حاكم المدينة) أحب زوجة رجل من البيض.. وحدثت بين الرجل وزوجته مشادة عنيفة، انتهت بأن خطفت الزوجة سكيناً كبيراً، وطعنت زوجها..

وخرج الزوج ـ جريحاً ـ وتعثر بضعة أميال الى بيت صديق، وهناك مات..

وتكتم الشريف الخبر ..

ولم يفتح أى تحقيق ..

ولكن البيض ثاروا، وقتلوا ثلاثة زنوج انتقاماً فظيعاً لجريمة وهمية..

ومن هنا كانت هذه المأساة ـ وحدها ـ تفجر من شعراء الزنوج وقصاصيهم معيناً من الألهام والواقعية. من الهزيمة والحنان.

فهذه مارجريت وولكر، الشاعرة تقول :

ـ لا أريد الجنوب. ولا أريد كابوساً من الحريق والزيت».

وهذا شاعر آخر يقول، فى قصيدة اسمها «أغنية فتاة سوداء» يقول :

ـ قلبى انكسر
في الجنوب
شنقوا حبيبى
وعلقـــوه
فوق الشجرة
سألت ربى :
ليه الضلا
والعـــذاب
ما دام حبيبى
فى الجنوب
وفوق الشجر
ربطـوه

بعد الصلا

والعذاب

وقصص السحل فى الشوارع، قصص دامية، وهى تشبه أفلام السينما من فرط الانفعال فيها، والحركات المريبة، والصاخبة..

إذ يزحف البيض.. الغاضبون حين يأتى الليل، وهم يحملون المشاعل.. ويتزعمهم متطرفون ومتطوعون.. وهم فى العادة ـ وهذا يتكرر كل مرة ـ يقتحمون السجن.. ويخطفون «القاتل» أو المتهم.. ليقتلوه بأيديهم.. حتى يصنعوا العدل بأيديهم، لابيد الدولة..

قبل الصباح ..

يأتى الفجر ..

ويقدم الزحام ..

ليرى الجثة المعلقة فى الشمس ..

ويشتاق النساء الى النظر ..

لكن ولا واحدة ..

تنظر فى أسى ..

من عيونها الزرق التى تشبه الحديد البارد

وحتى الأطفال البيض، يصورهم شارع الزنوج، المرتجف بالفزع والغيظ، فيقول :

ـ وأطفالهم يقدمون ..

ففيما بعد سيصبحون قتلة ..

يرقصون

حول ذلك الشىء الفظيع الذى يتدلى

من الشجر ..

وهذه الحياة المستحيلة، حقاً، فى الجنوب تراها فقط فى فرص العمل الضيق، وانخفاض مستوى المعيشة، وفى تصعلك الزنوج، وتسيد البيض. بل ان صغار البيض، هم غالباً أكثرهم حماساً للتفرقة بين البيض والسود..

انهم صغار المستبدين ..

فالمالك الكبير، منذ أيام المزارع، كان يكتفى بوضع القانون، وتحديد الأجور، وكان لا يظهر إلا كل يوم أحد، فى حانة المدينة الصغيرة.. يخبط على كتف هذا الأبيض الفقير، وكأنه صديق قديم.!

فلا يملك ذلك الأبيض الفقير إلا أن يتحمس لمجرد أنه أبيض، وأنه أصبح صديق المالك الكبير، وحقيقة أن الفقر والثروة يفصلان بينهما. فهذا ينعم فى قصره المنيف.. وذلك ينام فى مقهى أو حتى على حافة المزارع!

ولكنه لا ينسى تلك الخبطة على كتفه، ومعناها أنه أبيض!!

وهذه وحدها ميزة، عليه أن يحتفظ بها، ويفخر بها، ويتمسك بها تمسك المستند بضحيته!!

فإذا حانت فرصة رائعة، ذات يوم سبت، حين يقل العمل، ويخف النشاط ويتخفف الناس من مسئولياتهم.

وهنا ـ عادة ـ تحدث الحوادث، كما تحدث حوادث الاعياد والعطلات الصيفية والمناسبات..

زنجى عاكس بيضاء.. غمز لها، أو همَّ بالكلام.

فإذا بالخبر يسرى كالنار فى المدينة..

همس ـ ويا للعار ـ بأغنية ماجنة، أو غير ذلك، من تماحيك البيض..

فإذا بذلك الرجل الأبيض «الفقير» يصبح فارساً، كأنه يمتطى صهوة جواد من جياد الشياطين..

يريد أن يشرب دم الزنجى، على الفور، وفى جرعات طويلة.

وقلت لنفسى :

ـ أى مأساة حقيقية لو أحب فتى زنجى فتاة بيضاء.. أو أحبت فتاة سوداء زميلاً أبيض.. من فتية الجامعات، أو المحلات التجارية، أو المزارع !

لا شك أنه الدماء!

فهناك قصص زنجية أدبية عديدة تحكى هذه القصة، التى تشبه مأساة روميو وجولييت الخالدة، بين البيض والسود. وغالباً، يكون البطل من البيض، والبطلة «مولدة» سمراء، شبه بيضاء.. وحين يكتشف ان بدمها قطرة من دم الزنوج، تحدث المأساة..

فكيف ينفصلان، وقد اعتادا أن يتقابلا معاً، وأن يسترقا النظر والهمس.. والأحلام السعيدة!!

ولكن مثل هذه القصة تنتهى كالعادة بحب مستحيل.. وتنتهى قصة ضوء القمر، والزرع، ولقاء الشوارع، وهمس التلاطف، ودموع الاشفاق من بعيد، الى مظاهرة تطلب رقبة الفتى..

فإذا فازوا به علقوه فى شجرة..

وإذا فاز بالحياة، فر عبر الحدود إلى المكسيك!!

وأخذت افكر :

ـ هل قصة الحب المستحيل هى العذاب الوحيد الذى يتعذبه الزنوج ؟!

وتذكرت ذلك الفتى الذكى الأريب، الذى قابلته فى الشمال، حيث يتمتع الزنوج ببعض التسامح، وكيف يحلم دائماً بأن حياته سوف تنتهى بحب بيضاء..

وستنتهى بفاجعة ..

وقد كان هذا الإحساس يشبه عنده إحساس المتشائم المتوجس دائماً، الذى يخشى من السقوط..

ان ما يقوى المأساة هو الاقتراب والبعد ..

الحب المستحيل !!

ولست أدرى ما الذى جعلنى أفكر فى الحب المستحيل طيلة الوقت.. حتى ذهبت الى فيلم يعرض مأساة دون جوان، من زاوية جديدة..

فيلم اسمه : عقاب دون جوان ..

يبدأ الفيلم ـ الذى شاهدته ـ فى دار تشبه القصور الاسبانية مدخلها خافت الضوء.. تتدلى من ردهته نباتات طويلة رقيقة واهنة.. وزهور صفراء شديدة الصفرة.. والديكور يشبه رسوم والت ديزنى..

وأول صورة فى الفيلم يظهر شيطان، متمدين، يقول :

ـ أيها السادة سنحدثكم اليوم عن جهنم ..

والشيطان، كبير الشياطين، عينه اليسرى مريضة، مغطاة كعين قرصان..

ومساعداه شيطانان متمدينان، يلبسان ثياباً فرنسية من طراز لويس السادس عشر..

يبدو من حركاتهما الكبرياء والنفاق والخبث..

وآية النفـاق تلك الأحـاديث التى تسـمـع فى البـلاط الملكى.. لغـة مـتـحـذلقـة.. ذلاقـة لسـان. تكبـر وترفـع. خطوات مـرسـومـة.. وكلمـات محسوبة..

ويصرخ الشيطان الكبير من وراء مكتبه الزجاجى :

ـ تصوروا أنها تتمسك بعفتها الان ..

فيقول المساعدان :

ـ من هى ؟

فيقول كبير الشياطين :

ـ فتاة عفيفة من الأرض تهدد كل شىء نصنعه ..

أيها السادة، اننا فى خطر ..

فليس من المعقول أن نجرب معها كل الغوايات، فلا تسقط، إن هذا حقاً أمر خطر..

ويتحذلق المساعدان فى نفاق وتكلف ..

ويعلن الشيطان الكبير قراره الأخير ..

لقد قرر أن يستخدم الرجل الذى أغوى كل امرأة فى الأرض.. وله تاريخ طويل.. سوف يستخدم دون جوان.

ودون جوان ـ البطل الشهير ـ ضيف على جهنم منذ سنوات.

ويأمر الشيطان الكبير باختصار دون جوان الذى يحضر.

فيظهر شاحب اللون، كفتية الأساطير.. سمهرى القوام. يدخل من باب يكاد يقترب من قامته..

ويقول له الشيطان الكبير :

ـ سأخفض عقوبتك فى جهنم ..

سنخفض إقامتك فى جهنم ٢٠٠ سنة، لو نجحت فى غواية هذه الفتاة ..

وهى على أى حال ليست صعبة، وأنت بطل الأساطير الماجنة! فاستعمل معها خبرتك وفنونك!

ويوافق دون جوان، أخيراً، على شرط أن يصحب معه خادمه العجوز ..

ويقول دون جوان للشيطان إن خادمه قضى معه أكثر من مائة عام فى جهنم. ويتمنى لو يقضى ليلة واحدة.. فى الأرض..

ـ فاسمح له بالنزول ..

ويهبط دون جوان وخادمه..

والخادم عجوز متصاب.. له كرش هلوك. تطيب له كل الملذات، حتى ولو كانت من جهنم..

وينزلان الى الأرض بالقرب من شجرة..

ولا تكاد أقدامها تلمس الأرض، حتى يريا شيطاناً كانا يعرفانه من جهنم..

ويقول لهما الشيطان :

ـ لقد أرسلني ابليس معكما. لاراقبكما.. وأرصد عليكما حركاتكما..

ويتحول الشيطان الى قطة سوداء.. تجرى بين أقدام دون جوان وخادمه..

ويقترب دون جوان وخادمه من بيت العائلة التى قرر ابليس إفسادها..

البيت فى الطريق الرئيسى الذى يوصل الى قلب المدينة.. والسماء هادئة.

ورب العائله قسيس ساذج ..

يأكل ويبسمل.. ويدعو الله كل ليلة، حين يخلو لنفسه، أن يخفف سذاجته، وأن يقلل من عبطه، وأن يجعل زوجته تفهمه.. ولو قليلاً..

ويدخل دون جوان وخادمه، فيدعوهما للأكل.. ويتحدث رب العائلة مع المسافرين مرحباً. ويقول دون جوان للعائلة أنه كاتب مؤرخ يهتم بكتابة سيرة دون جوان.

وبينما المائدة ممتدة. إذا بالسماء تبرق وترعد.. والمطر ينهمر..

فلا يجد.. المضيف مناصاً من استضافة الضيفين الوافدين..

ويكتشف صاحب البيت، الطيب القلب، تلك القطة السوداء، التى تندس بين أقدام ضيوفه ـ وهى الشيطان الجاسوس ـ فيقدم لها صاحب البيت شيئاً من طعام ..

وبعد العشاء، يستمر الحديث عن السفر ..

ويهبط الليل كثيفاً ..

فيدعو صاحب البيت ضيفيه الى حجرتى الضيافة..

وتبدأ المهمة والغواية ..

وينسل خادم دون جوان ـ العجوز المتصابى ـ الى غرفة الزوجة، التى تقرأ فى سريرها كتاباً عن الحب والمغامرات.. وتغطى جسدها تماماً.. بإحكام متين !

والليل يهمس بالشطحات للذى يقرأ فى جنح الظلام ..

فيقترب خادم دون جوان من سيدة البيت .. هامساً.. فتصده..

ثم ينتقل الفيلم الى الأب، رب العائلة، الذى يصلى. وتبدو عليه الطفولة الساذجة.. ويدعو ـ فى نهاية صلاته ـ أن يوفقه الله حتى تفهمه زوجته!

وينتقل الفيلم الى دون جوان، فإذا به يقص على الفتاة الأقاصيص، ويحبك لها شتى الفنون والفتن..

وتقول له الفتاة :

ـ قبلنى !

فيفاجأ دون جوان، ويقبلها بلا اشتهاء ..

مجرد قبلة عابرة !

فتقول له الفتاة الشابة، ساخرة :

ـ وهل هذه قبلة !

وتقبله الفتاة قبلة جديدة شابة، مفعمة بالعنفوان والصبا. ثم تسأله الفتاة أن يحكى لها قصة هذا الرجل الذى يكتب سيرته:

دون جوان ..

فيقول دون جوان :

ـ مات بطعنة رجل غيور!!

ويتفرس دون جوان فى الفتاة فلا يستبد به شىء غير الحنان !!

فهو لا يدرى ما الذى يجذبه إليها، وهو الخبير بحال النساء. فجمالها فريد فى نوعه ولونه..

انها متوسطة أميل الى القصر من الطول ..

ولكن شعرها طويل شديد السواد يصل الى قدميها ..

عيونها ضيقة ..

ولكن رموشها طويلة، يزيد من طولها كحل شديد السواد..

وفمها رقيق، كورقة الورد، أو قلب البراعم الوليدة..

ولكن أسنانها متضاربة، وان جمعها تناسق غريب !!

وجهها وجه طفلة رقيقة ..

ولفتاتها لفتات انثى، تفيض بالأنوثة، وتضج بها أحياناً..

وأخذ دون جوان يتفرس فيها ..

وهو يبحث سر هذه الجاذبية الغريبة التى تجذبه إليها ..

هل هى الراحة الغريبة فى هذا التضارب بين قامتها المتوسطة وطول شعرها وغزارته.. وبين ضيق عينيها وطول رموشها، وفمها الرقيق وأسنانها الدقيقة المتضاربة..

ان هذا التزاوج يثير الراحة، لأنها ليست صارخة الجمال ولكنها كامنة الفتنة، تشبه الفاكهة الرقيقة فى خطوطها وانحناءاتها!

وينتقل الفيلم بعد ذلك، الى مخدع الأم التى لا زالت تصد الخادم..

والخادم يحاول معها كل الأحابيل والحيل .

يهمس فى أذنها، ويلمس عنقها، ويداعب أطراف أصابعها، فتنهره، وتصده ..

فلا يعدم الخادم الشوق ليغويها ..

وقد نزل من الجحيم ساعات ..

فيستخدم معها حيلته الأخيرة !

ويبكى !!

يزحف باكياً .. ويقول :

ـ أصارحك ولا تخافى ..

لقد نزلت من الجحيم. وسجنت فيه مائة عام..

ولن أعيش نا إلا ساعات قليلة..

وقد أتيت إليك بكل أشواق السجين ..

وتنهار ..

وتقول، وهى تقبله بين دموعه :

ـ لقد استخدمت كل الحيل.. فلم تنفع سوى إثارة عاطفة الأمومة!

وهنا يظهر الشيطان الحارس، الذى أرسله كبير الشياطين ليسهر على نجاح المهمة..

ويتحول من قطة سوداء الى رجل ..

ويهرع الى غرفة الزوج.. مولولا..

والزوج نائم فى سريره، فيوقظه الشيطان، ويقدم نفسه!

ـ أنا الشيطان !

فلا يصدق الزوج بالطبع، ويقول فى هدوء :

ـ هذا مثير حقاً !!

فيصرخ الشيطان :

ـ لن تصدقني.. ولكن جريمة تجرى فى بيتك، وتحت سقفك..

فيومىء الزوج فى سذاجة :

ـ هذا مثير حقاً !

بل هذا مستحيل !

ـ ان زوجتك ترتكب معصية مع خادم ضيفك ..

فلا يتحرك الرجل، وكأنه يسمع هاجساً فى الهواجس .

ـ ألا تصدقنى ؟!

إليك مفتاح الغرفة، المقفلة عليهما !

ويلقى الشيطان بمفتاح الغرفة على السرير !

فيتحرك الزوج مع الشيطان الرقيب، الى غرفة الزوجة وفى طريقهما ممر طويل، يمر منه الزوج والشيطان، ثم يقتربان من دولاب داخل الحائط..

فيفتح القسيس باب الدولاب، وينتهز فرصة اقتراب الشيطان من باب الدولاب، ويدفعه الى داخله، ويقفل عليه

ويصيح :

ـ ها!! لقد سجنت الشيطان فى دولاب.

أن هذا أروع عمل فى حياتى ..

شكراً لله!!

ويعود الزوج الى غرفته، وهو لا يفكر فى زوجته.. بل يفكر فى الطريقة التى سيعلن بها الى أهل القرية، وزبائن كنيسته، كيف أنعم الله عليه، وهو فى نهاية العمر، فسجن الشيطان فى دولاب..

ويمضى الليل ويقترب الموعد الذى حدده كبير الشياطين للانتهاء من المهمة..

ويبدو أن دون جوان قد نسى مهمته التى أتى من أجلها،والتى سوف تنقذه من عذاب الجحيم مائة عام..

فلقد أغرق فى الحديث مع تلك الفتاة ـ الطفلة الأنثى ـ يقص عليها قصص الشوق.. والحب العنيف.. والليل الطويل والشحوب، والسهر والحديث العذب..

وينقضى الموعد .. بلا جدوى ..

فيعود دون جوان خائباً، بعد أن يودع الفتاة.. بشوق عنيف..

ويعود الخادم وقد أغوى السيدة، وأخمد شوقه ونزوته..

ويستقبل كبير الشياطين دون جوان ثائرا هائجاً..

هل فشل آخر سلاح مع تلك الفتاة ؟!..

ويصيح بغيظ يتفجر :

ـ ولكن كيف ؟

كـيف ترضى، وأنت دون جـوان، أن تقـبلهـا بين عـينيـهـا، وفى شعرها، وعلى مفرقها، وبين حاجبيها، وبين اناملها.. فقط!!

ويقول دون جوان :

ـ خذلنى حديث الخيال عن العفة والهوى المكتوم !!

ويقول كبير الشياطين :

ـ أيها الخائب ..

أرسلتك لتغويها، فأغوتك اللعينه ..

فيقول دون جوان :

ـ ولكنك لا تعرف سحرها ..

سـحـر عيـونها الضـيـقـة ورمـوشـهـا الطويلة.. وقـامـتـهـا المتـوسطة وشعرها الأسود الطويل الذى يغطيها..

أنت لا تعـرف ــ وكـيف تعـرف ـ شـفـتـيـهـا الرقـيـقـتـين كـالندى.. كالياسمين..

فيصرخ فيه كبير الشياطين :

ـ اخرس! كفى. كفى!

انها لا زالت تهدد الشر !

وينكس دون جوان رأسه حالماً ..

لقد أراد أن يفشل، لأنه أحبها حب العفاف، وكان يستطيع أن يغويها..

فكيف يشرح للشياطين انه أحبها ..

ويأمر كبير الشياطين بالقبض على دون جوان، من جديد.. فيسحبه الحراس، والشرر يتطاير..

ويسأل الحراس كبير الشياطين :

ـ ماذا نفعل به ..؟

السجن الف عام. النزول به الى حضيض الجحيم ؟!

فيصرخ كبير الشياطين :

ـ بل دعوه يحلم ..

دعوه يحلم.. فسوف يراها فى حلمه، ويتذكر حبه الذى فارقه فى الارض..

دعوه يحلم. ففى الحلم المستحيل أقصى العذاب!

وتنتهى قصة الفيلم ـ بين ذهولى ..

فلقد عاقب الشيطان دون جوان شر العقاب.. بأن يتذكر الارض، ويحلم بالمستحيل..

وياله من عذاب ..

أن يحكم عليه بالشوق مائة عام .. أو يزيد ..

وهذه الاسطورة التى أصبحت فيلماً، تصور طبعة جديدة من «عقاب» دون جوان .

الفتى المتمكن من الحب، حين يقهره الشوق!

فليس يعصى على الحب شىء!

وليست جهنم هى العقاب. ولكن الشوق المستحيل هو جحيم العذاب!

ولكن قصص الزنوج كلها، فى نهاية القرن الماضى وبداية هذا القرن، تمر بقصة الحب بين الأسود والبيضاء أو الأبيض والسوداء.. حباً «مستحيلاً»، ليست فيه تلك الرقة الشفافه عند دون جوان، أو روميو وجولييت، أو تريستان وايزولد، ولكنه حب «مستحيل» بأمر المتاريس التى ينصبها البيض، لو مال أسود الى بيضاء!

أن عذاب دون جوان الأسود عذاب أرضى، محاط بالخوف والدم!

فالأبيض فى الجنوب، يستبيح لنفسه حب أى سوداء ولكنه لا يسمح للأسود أن يحب بيضاء.

فمصيبة المصائب تقع، ويشحن جو البلدة بالهيستريا والصراع.

مع أن السود يغرقون البيض بالحب والحنان أحياناً.

فقد قال لى شاب زنجى :

ـ ان أغلب هؤلاء البيض المتشنجين فى الجنوب، كانوا يرضعون فى طفولتهم من صدور زنجيات مربيات!

والعجيب أن الأبيض يدعى أن الأسود «قذر» بطبيعته، وهو ينسى أن السود هم الذين يرضعونه، وهو طفل وهم الذين يعدون له الطعام.. فالأبيض يستخدم الاسود، ويأتمنه على أطفاله، وأكله، ولبنه.. ثم يدعى بعد ذلك قذارته!

وعلاقة الحب بين السود والبيض علاقة محاطة بالتوتر والمغامرة، وقد كانت فى الماضى حباً كريماً من الزنوج، وبغضاً ونزقاً من البيض.. فالابيض يطالب بأن يحب (بفتح الحاء)، والا يطالبه أحد بأن يحب.

وكان هذا هو «الجو» الاجتماعى فى مطلع هذا القرن.. حتى أن الزنوج ملأوا أشعارهم وقصصهم بالابتهالات والشكوى والانين. ثم تجد هذه النغمة تتغير فى أدبهم الجديد.. فيصبح الابتهال غيظاً، والالم المسكين صراخاً.

وقد تطور الادب مع تطور قضية الزنوج، ووعيهم !

فبعد أن كان هو حامل الفأس فى الغابة، أو عبد المزرعة الواسعة تغيرت على السواء. ولكنك تلمح الآن لهجة اعتراض وتحد :

إذا كـــــان لابد ان نموت

فلن نموت كـــــالكلاب ..

وهذا شاعرهم هوجز يقول :

ذات يوم

ستكون لنا أرض فيها شجر

وببغاوات فصيحة

ونهار في صفاء المياه

أرض، ليست هذه الأرض.

حيث الطيور غربان رمادية!

وقد تفوق الزنوج في عالم الأدب والشعر والألحان الشعبية وموسيقى الجاز. وإن كانوا قد اشتهروا بأنهم ملاكمون أشداء ولاعبو بيسبول بارزون.

والمضحك حقاً أن هذا الذى اشتهروا به ليس هو دلالة العبقرية، وأن الذى يخفى على الناس هوأن الزنوج هم أشد الامريكيين «أصالة» فى التفكير والتلحين والشرود..

فقد كانت أمريكا الى عهد قريب تعتبر «ريف» أوروبا، لا يميزها شيء من أوروبا إلا فى الحجم، أو الكم.

فالذين نزلوا بوسطن كانوا يقلدون الايرلنديين..

والذين نزلوا فرجينيا أو نيو أورليانز كانوا يقلدون الفرنسيين.

كانت كل جنسية تهاجر الى امريكا تنقل شيئاً من حضاراتها وكثيراً من عاداتها وتقاليدها..

وقد لمست بنفسى ذلك الشعور عند الامريكيين، من أنهم تنقصهم الاصالة والعراقة.. وانهم يعوضون ذلك بالنشاط الشديد، والحركة المجنونة.. حتى لقد قال لى صديق امريكى :

ـ ان ميزة عدم الارتباط «بتاريخ قديم»، انك تستطيع ان تفعل أى شىء.. فى حرية!

وفى نفس الوقت الذى يحس فيه الامريكيون بضعف هذا الجذور التى تمتد الى الماضى، يحرصون على «صناعة» تقاليد، والتحايل على ذلك بفنون عديدة.

فأسماء عائلات القرن السادس عشر فى انجلترا وايرلندا، تجدها أسماء لمطاعم، واسماء لقاعات فى فنادق، مثل تيودور. وويلز، وغيرها..

ولكنها تقاليد، لو تعمقت، فلن تبلغ أكثر من العصر الفكتورى بمدة طويلة!

وعقدة «التقاليد» تصبح احياناً هوساً.

لأن الامركيين يعلمون أنهم قفزوا قفزة واسعة الى الصناعة والماكينة، ولم يمروا على الحرف الدقيقة التى تنطق فناً ودراية وحيلة.. فلست تجد دانتلا اسبانيا، ولا فخار هولنده، ولا نقوش

دمشق، ولا زجاج تشيكوسلوفاكيا..

ولا خزف الصين، وغير ذلك من فنون الحرف التى لها تقاليد موروثة، وتعاليم مخصوصة!

ولذلك يتأنق الامريكيون هذه الأيام فى اصطناع شيء من التقاليد، وكثير من الذوق المرفه..

فلقد أنفقت زوْجة كيندى بضعة آلاف على اختيار بضعة لوحات من أوتريللو، الرسام الفرنسى، لتضعها فى البيت الابيض.

وقد لا تصدق ذلك الزحام فى المعارض، والمتاحف.. ولكن الآلافاً يذهبون، وقد لا يفهمون! ولكنهم ـ على أى حال ـ يذهبون.

وقد حدثت لى حادثة فى نيويورك لم أكن لاصدقها لو حكيت لى.

فقد أقام معرض جو جنهايم، وهو من أكبر المعارض فى نيويورك، عرضاً لأعمال الرسام الفرنسى الشهير ماتيس.

وتكأكأ الناس على المعرض، ولم يعد فيه موطيء لقدم من شدة الزحام.

وكتبت الصحف، وتحذلقت النساء، وأصبح المعرض حديث المجتمع.. ثم حدثت المفاجأة المذهلة.

لقد اكتشفت إحدى السيدات أن لوحة من لوحات ماتيس معروضة بالمقلوب! ولم يكتشف أحد من الحراس أو الامناء أو الخبراء هذه الحقيقة حتى انقضى أكثر من ثلاثة أسابيع!

وكانت فضيحة .

وحين سألت صديقى الشاعر الزنجى، هل يتفوق الزنوج فى الرسم والنحت،

قال: لا.. ولكن الشعر والنثر والموسيقى. تفوقنا فيها تفوقاً شاسعاً.

وقال الصديق :

ـ ألم تلاحظ الفرق بين الأغانى الزرقاء، والاغانى الروحية.

قلت :

ـ الزرقاء عاطفية.. والروحية فيها مسحة من دين.

فقال :

ـ لقد اكتشف الدارسون ان الايقاع فى الزرقاء يختلف عن الروحية.

ففى الأغانى الزرقاء يجعلك الايقاع تحرك الايدى، والاذرع، والجسم، والارجل.. علامة الجزل والطرب والنشوة.

أما الاغانى الروحية، فالايقاع يحرك فيك الراس والصدر فقط.

وهذه دقة «خفيه» تفوت النظر المضطرب، أو السطحى، ولا يدركها غير القلب اليقظ.

قلت :

ـ الايقاع فى الجاز يكاد يقترب من الطبل الافريقى !

فقال الصديق الشاعر :

ـ طبل الجاز وارد أفريقيا .

ولست أذكر اسم ذلك الباحث الذى قارن بين طبول الجاز، وطبول الموسيقى الفرنسى برليوز، فى سيمفونيته الخيالية.

انه يستخدم طبولا قوية معبرة! ولكن طبول الجاز متقاربة، متلاحمة فيها نبض وعنفوان طبيعى.

وقال الصديق :

ـ ان موسيقى الجاز ليست أفريقية كلها، وليست زنجية كلها.

فقلت :

ـ هل تعنى انها تأثرت بالموسيقى الغربية .

ان هناك من يقول ان الزنوج سمعوا ألحاناً «فرنسية».. فى نيو أورليانز.. وتأثروا بها.

ويستشهدون على ذلك بأوبرا كارمن لبيزيه..

فقال :

ـ هذا مستحيل !

ـ لو صح ان الزنوج سمعوا أغانى الفرنسيين فى نيو أورليانز، فإن هذا وحده لا يكفى «لتموين» كل هذه الثروة من الانغام العديدة المنوعة!

وقال :

ـ ان موسيقى الجاز أفريقية الأصل. ولكنها أيضاً تعبر عن أحاسيس رجل الطبقة الوسطى فى امريكا بعواطفه وخيبته، وأمله..

ـ وتعبير عن السرعة والصناعة.

ـ تماماً.. سر موسيقى الجاز هو ذلك الايقاع السريع الذى تجده حولك.. حتى فى الجنوب..

فالسرعة والقفز إيقاع تتعود عليه مادمت تعيش فى امريكا. ولا شك أن هذه السرعة صدمت آذان الزنوج أول الأمر، ولكنهم استطاعوا أن يعبروا عنها بليونة ومهارة!

فإذا كانت «المدنية» الامريكية فيها حضارة.. فالحضارة للزنوج، والمدنية للبيض.

وقد اكتشف الامريكيون أنفسهم هذه الحقيقة، ففى الوقت الذى عكف فيه الامريكيون على جمع المال والمضاربة وفنون الايجار والتقسيط.. هبط الزنوج الى أعماقهم، يكشفون عن آلامها، ويكتبون عن أحلامهم..

وحين صدمت المدنية الامريكية لأول مرة، صدمة عظيمة، مثل صدمة الازمة الاقتصادية فى عام ١٩٣٠م، اكتشف الامريكيون ان نظامهم ليس كما تخيلوا..

وبدأت الأزمة الاقتصادية تكشف عن أزمة ضمير، سماها الامريكيون بالزلزال، كان أخطر من الزلزال الذى ابتلع سان فرانسيسكو!

ومحور الأزمة العنيفة التى تهز الضمير الامريكى هى الصراع بين ما أملك، وما أنا عليه فعلاً.

هل قيمة الانسان بما عنده. أو بما فيه من مواهب، وأفكار وقدرة؟!

رالفرق دقيق.

وقد طرحه أدباء امريكا جميعاً بيضا وسوداً..

وليس غريباً بعد ذلك ان يعطف ارسكين كالدويل أو جون شتاينبيك على الزنوج..

وليس غريباً بعد ذلك أن ينظر المثقفون البيض الى الزنوج على أنهم أهل حضارة واصالة.. فينظر بقية البيض الى هؤلاء المثقفين نظرة الزراية.

وليس غريباً أن يتهم البيض المتطرفون هؤلاء الكتاب بأنهم «ليبراليون»، أى متحررون.. وهذه وحدها صفة تعطل الاستاذ عن الترقية فى جامعته..!

وطبيعى أن الذى يجمع المال، أو الذى يعمل عند جامع المال، لا يتنبه الى أن تقدير المثقفين من البيض للزنوج مرجعه الى تقدير نفسى له ما يبرره!

واعجب ما تصل إليه ـ بعد ذلك ـ أن الزنوج هم أكثر الامريكيين فناً، وحضارة، وتوهجاً، وأكثرهم تأثيراً على الثقافة.. ورغم ذلك، فهم أقل الامريكيين حظاً ونصيباً فى كل شىء!

وقد أحسست أن ظاهرة «اضطهاد الزنوج» متركزة على الزنوج، ولكنها مسألة طبيعية وخفية داخل المجتمع الامريكى.

واحترت فى تفسيرها .

حتى كشفها لى أحد علماء الاجتماع، الذين يدرسون تاريخ الجنسيات المختلفة فى امريكا.

فقد قال لى: ان امريكا تكونت من وفود وأفواج وأمواج من المهاجرين.

لم تكن تحدث ثورة فى أوروبا، حتى تطفح بالمهاجرين والهاربين الى امريكا.

ومنذ مجاعة البطاطس فى ايرلنده فى القرن السابع عشر، وامريكا تستقبل أفواجاً وأفواجاً.

وقد بدأت الهجرة من غرب أوروبا، ومن ايرلنده.

وقال :

ـ الارستقراطية الامريكية الآن هى التى ترجع الى أصل ايرلندى مثل عائلات كابوت لودج، وكيندى!

وقد اجتاحت أوروبا ثورات عديدة بعد الثورة الفرنسية، فكانت الأمواج والأفواج تصل.

من فرنسا، ثم من المانيا، ثم من وسط أوروبا، واليونان، وبولنده!

وكانت كل جنسية تستقر فى منطقة، وتحاول ان «تقتحم» لنفسها مكاناً،

وكانت بالطبع، تجد الصعوبات فى أول الأمر، ثم تستقر لها الأمور، فتنقلب نظرتها تماماً.

- كيف ؟!

أنها تحاول أن تنظر الى الوفود «الجديدة» نفس النظرة التى كانت تلقاها من الذين استقروا وتيسرت أحوالهم من قبل. نظرة الكبرياء!

مثلاً، الألمان حين وصلوا، لم يكونوا يعرفون اللغة، وكانوا يلاقون مشاق كثيرة، وكان الايرلنديون والانجليز، وهم أسبق منهم فى التوطن، ينظرون إليهم نظرة استعلاء وكبرياء!

- وماذا حدث؟

- انتظر الألمان حتى جاءت حربنا مع المكسيك. وهم بطبيعة الحال عسكريون ونظاميون. فانخرطوا فى هذه الحرب. ونجحوا.

فبدأ المجتمع يفسح لهم الطريق و «يعترف» بهم.

قلت :

لكن مشكلة «الاعتراف» بالآخرين هى قلب المشكلة .

فكيف لم «يعترف» أحد بالزنوج مع أنهم استقروا منذ ثلثمائة وخمسين عاماً؟!

ـ قبل أن أرد عليك. هناك نقطة هامة، هى التى أردتها من جديتى.

ان الوفود القديمة تعامل الوفود الجديدة معاملة التأفف والضيق.. حتى يكسب الوفد الجديد مكانته، فيحاول أن يخلص ما لاقاه من قبل فى الآخرين! وهكذا!

قلت له :

ـ ولكن لى تفسيراً احسن، ولا أعرف مدى صحته، وهو فى اتجاه آخر تماماً.

فضحك قائلاً :

ـ التفسير الاقتصادى !

قلت :

ـ إلى حد ما، يفسر لى ـ على الأقل ـ سر أزمة الزنوج!

ان عقلية الامريكيين الغالبة عقلية «نفعية».

قيمة الشىء بفائدته. وبأهميته العملية.

إذا ما احتجت شيئاً، فله قيمة.

وإذا استغنيت عنه، أصبح شيئاً منسياً.

ال هنا نتفق .

قال :

ـ لا تنس انها عقلية رومانتيكية أيضاً. جمعت بين الرومانتيكية والروح التجارية.

قلت :

ـ أريد أن أقول، أن البيض يربطون بلا وعى بين الزنوج، وبين الاقطاع وزراعة الدخان والقطن. وقد دخل الامريكيون عصر الصناعة من أوسع أبوابه، وهم يشرفون الآن على عصر الذرة..

وهم لذلك لا يعرفون ماذا يصنعون بالعشرين مليون زنجى الذين تخلفوا من أيام العبودية، والاقطاع، والقطن.

وقلت موضحاً :

ـ ان الامريكى تعود ان يترك السيارة التى لا يحتاج إليها، وان يركب أخرى، بمنتهى البساطة.

ـ وماذا تريد أن يفعل؟ أن يبقى متعلقاً بسيارة قديمة!

ـ لا، ولكن أريد أن أقول أن الامريكى يقيس الأشياء بنفعها فإذا لم تنفع، ألقاها بعيداً. وهو ـ بلا وعى ـ يحس كأن الزنوج ارتبطوا بمرحلة انقضت، ولن تعود، انه يعتقد ان الزنوج انتهى دورهم، بظهور الآلة!

وهذا التفسير على قسوته، هو سر المرارة الشديدة التى تحسها عند الزنوج.. «الآلة» الانسانية، و «الحيوان» العاطفى كما يقول غلاة المتطرفين.

ولهذا يريد الزنجى أن «يقتحم» المجتمع الامريكى بنفس قواعد اللعبة المقررة!

فهو يبرز فى الرياضة، ليصبح نجماً فى «البيسبول»، والملاكمة.

وهو يبرز فى الغناء حتى يصبح إلهاً ومعبود الجماهير..

وكل هذه الفنون «اقتحام» من النوع العنيف.. الذى يفرض نفسه بلا منازع..

ولكن الزنوج بدأوا يستخدمون وسائل الضغط والعناد، والغضب على البيض.. وقد تجمعت لهم الآن قوة اقتصادية لا بأس بها.. وعدد وفير من الذين يأكلون، ولو اقفلوا افواههم يوماً واحداً، لأقفلت عشرات المحلات التى ترفض استقبالهم!.

وهذه القوة «السلبية» تصبح لضخامة العدد، وشدة التضامن قوة إيجابية.

ولقد تذكرت مقاومة غاندى، التى كانوا يلقبونها بالمقاومة السلبية، وهى فى الحق مقاومة إيجابية، لأنها فعالة وشديدة الأثر.

وقد اكتشف غاندى ـ بعبقريته ـ ان الرأسمالية الانجليزية الضخمة عمادها الآلة، والانسان المطحون، فماذا لو اخترع غاندى مغزلاً.. ليهدم به هذه الآلة العملاق.

وفى الهند يتجمع مائة ألف أو مائتا ألف ليسمعوا خطيباً، أو ناصحاً.

وهذا «الزحام» الطبيع كان يعطى المقاومة «السلبية» طابعاً إيجابياً.

فقد كان يكفى أن يقول غاندى :

ـ أجلسوا على قضبان السكك الحديدة فى وجه القطار الانجليزى الذى يحمل السلاح، حتى تغط الطرق بالبشر فوق البشر. ولا يستطيع القطار الحراك!

وقد بدأ الزنوج يكتشفون فكرة المقاومة السلبية، فلم يعد يكفيهم الأنين والشكوى والابتهال.

وانك لتجد دليل ذلك فى أدبهم الذى أصبح احتجاجاً وغيظاً.. بعد أن كان هزيمة وحناناً.. وبكائيات..

***

وهكذا لم أكن أتصور اننى سأكتب كتاباً عن امريكا يدور حول الكراهية والاضطهاد.

لكنى لم أستطع أن أترك القلم. أو أن أسكت.

فعلى البعد، ومن وراء هذه الناطحات الضخمة المتلألئة الأنوار، ومن وراء هذه المكاتب العصرية الأنيقة، وهذه القصور الهائلة، كانت تلوح لى كلما اطللت من غرفة فندقى أضواء صغيرة مختنقة.

فى أحشاء المدينة، وقاعها، وحول هذه الأضواء القليلة هناك أيضاً بشر. لهم قضية لا أستطيع نسيانها

جرح وسكين .

وخرجت من امريكا بهذا القلق. ولم أعبأ كثيراً بتلك الأرقام التى يغالون فى بيانها وإذاعتها، وأصبحت لا أذكر عن أمريكا وراء الصورة المضيئة والفاتنة، واللعوب، واللامعة، سوى هذه البقعة العريضة السوداء التى تمتد من أقصى الجنوب الى أقصى الشمال.

وأصبحت قضية الزنوج من قضايا عمرى، ولم أحس أنها قضية تبعد آلاف الكيلومترات ويفصلنا عنها محيط وبحار ومرافىء.

وحين استطعت بعد سنوات زيارة داكار، عاصمة السنغال، قالوا لى :

ـ هل زرت جزيرة جورى. أنها لا تبعد غير ربع ساعة باللنش؟

وفى الجزيرة، المهجورة من غير زيارات السياح فى الصباح، والتى لم يعد يسكنها من البشر سوى بعض الصيادين، سرت فى حواريها الضيقة الرائعة، التى تظللها أشجار استوائية ضخمة، وتصبغها ألوان افريقية حمراء دافئة، وقذفنى التراجمة ـ المتطوعون من الأطفال والشحاذين ـ الى السجن.

ففى هذه الجزيرة ـ الرائعة الجو ـ اللطيفة النسيم، الصافية السماء، كانوا ينقلون الزنوج، ويسجنونهم أياماً فى سجن منحوت فى صخرة ضخمة، تطل على المحيط مباشرة.

وفى هذا السجن، وفى الغرف الصغيرة المظلمة، كان العبيد يربطون بالسلاسل أسابيع ينتظرون رسو السفن، وبدء الرحلة المضنية عبر المحيط حتى يصلوا الى الشاطىء الامريكى.

فإذا كانت امريكا بالنسبة للرجل الأبيض حلماً، أخذ يداعب كل من لفظتهم ثورات ومجاعات أوروبا، فإن امريكا كانت هى الوحل الذى هوى فيه الرجل الأسود.

مكبلاً بالسلاسل، ومحشوراً فى السفن الشراعية، منقولاً الى أرض جديدة لا يعرفها، محكوماً عليه بالعبودية.

وقد كانت امريكا حلماً. ولهذا أقاموا تمثال الحرية الواضح الملامح الواسع العيون، الرافع اليد اليمنى. حلم كانوا يرونه وعيونهم مفتوحة.

فهذا والت وايتمان، شاعرهم العظيم، يتغنى بأرض الخيرات، والقمح الوفير والشلالات والصحراوات، والجليد والرمال، وعيدهم الأهم هو عيد الشكر على هذه النعمة التى أصابوها أو صنعوها.

وحتى فرانز كافكا، هذا الأوروبى، الذى يمثل فى أقاصيصه عقدة الاضطهاد والنفى ـ الى الداخل ـ والقلق المتوتر المشدود، كتب قصة ـ لم يكملها ـ عن أمريكا. كأنها حلم يطوف بكل الاوروبيين.

من ضاقت بهم حوارى ميلانو، أو ضواحى فيينا، أو قرى ايرلنده، أو شواطىء فرنسا، أو مدن ألمانيا كانوا يشدون رحالهم الى هذه الأرض الجديدة.

فكيف بهؤلاء الزنوج ينقلون من بلادهم - فى تجارة عالمية محكمة الروابط - الى جزر الكاريبى فى البداية، ثم ينقلون بعد ذلك أفواجاً الى امريكا، وتصبح تجارة العبيد أربح تجارة فى ذلك القرن.

واتضحت لى حقيقة امريكا من جذورها.

أن أول زنجى وصل الى أمريكا عن طريق أوروبا. وكان الاسبان والبرتغاليون - الذين وصلوا الى ساحل غينيا - هم أنشط التجار وأقساهم. ودخلت تجارة العبيد ضمن قائمة التجارة الأوروبية. وفى فجر القرن السادس عشر، بل فى السنة الأولى، قررت أسبانيا السماح بنقل العبيد إلى أمريكا.

وكانت الثروات الهائلة - البكر - في امريكا تحتاج الى طاقة هائلة من العمل. وحاول الأوربيون فرض العبودية على الهنود، سكان امريكا الأصلية، ولم ينجحوا، فجاءت تجارة العبيد، ونقلهم بالسلاسل عبر المحيط. وتكونت الشركات الهولندية والفرنسية والبلجيكية لبيع البشر: ثم تنافس الانجليز مع الأسبان. وكانت الحرب على المستعمرات، والعبيد. ثم تنافس الانجليز مع الأسبان والهولنديين، وفاز الانجليز بحق احتكار تجارة العبيد ونقلهم الى أمريكا.

وفى ظل هذا الاحتكار جنت بريطانيا ثروات طائلة، لأنها أنشأت مراكز عديدة فى افريقيا لهذه التجارة.

ويقول أحد التجار فى كتاب قديم كان العبيد يفضلون الهرب من «السفينة السجن» وُيغوصون تحت الماء، فيموتوا، أو يأكلهم سمك

القرش. وكان العبد يربط بالعبد. وكانوا يسمون الرحلة «العبوة» وكانوا يحشرون فى قاع السفينة فلا يستطيعون الحركة طوال الرحلة. واستخدموا العبيد فى زراعة الدخان فى البحر الكاريبى. ثم جاء القطن، فكان كارثة على الزنوج. لأنه يحتاج الى عمل مستمر وحشد كبير.

وبدأت الحشود ترسل الى فرجينيا، ثم ماريلاند، ثم كارولينا،وجورجيا.

وليس صحيحاً أن الزنوج رضوا بالعبودية، أو كانوا، كما تصورهم أفلام البيض ودعاياتهم يمثلون الرضا السانج، ففى بداية تاريخهم صفحات مهجورة أو مجهولة من المقاومة..

«مؤامرة» كاتو فى ريف شارلستون ١٧٣٩، أقلقت البيض، وأضرمت النيران، وانتهت الى تقوية القوانين المعادية للعبيد.

نيويورك ١٧٤٠ تشتمل بالثورة. ثمانية عشرة يعدمون شنقاً. وثلاثون يموتون حرقاً.

والعجيب أن صفحات الزنوج تسجل أبشع الحقائق عن الانجليز، ومع ذلك، فهم يروجون فى افريقيا وآسيا انهم هم الذين تزعموا حركة تحرير العبيد.

وكان الانجليز أنشط الأجناس فى تدعيم وتوسيع العبودية.

وكانوا أنشط الأوربيين فى التجارة والاستعمار وبيع العبيد.

ولم يعرض الانجليز على العبيد فكرة تحريرهم، إلا أثناء الثورة الامريكية.

أرادوا أن يستميلوهم الى جانب انجلترا، ورفض الجنرال واشنجطون ـ فى السنة الأولى، تطوعهم فى الثورة ولكنه أضطر أخيراً الى قبولهم كمحاربين وبحارة.

ولا تسجل سجلات الثورة اسم أى زنجى، فلم يكن يذكر الاسم، وكان يكتفى بالقول: متطوع زنجى، أو زنجى مجهول.

وحين بدأت أول ثورة ديمقراطية فى امريكا، بمناسبة دستور الاستقلال، ١٧٨٧م، علت الأصوات ضد فكرة تحرير العبيد.

وظلوا بلا أسماء أو حرية أو كيان.

حتى بعد أن تطورت أمريكا تطورات هائلة. التجارة تتسع وامريكا تشترى لويزيانا ١٨٠٣م، والامريكيون يهاجرون إليها، ولكنهم يحملون معهم العبيد، وحتى فى حرب ١٨١٢م، كان الزنوج يحاربون، أملاً فى الفوز فى النهاية بالحرية. ولكن الحرب تنتهى والعبودية تبقى.

الانتقال والتعمير فى كل مكان.

ممالك القطن تعم امريكا، والعبيد باقون.

وعلى الرغم من اقفال سوق العبيد فى افريقيا رسمياً فى عام ١٨٠٨م، إلا أن التجارة السرية وتهريب العبيد ظلا يمولان حقول القطن الشاسعة.

وظلت امريكا تضع القوانين تلو القوانين، تمنع العبيد من رفع القضايا، أو حلف اليمين، أو عقد الزواج، وتعتبر أولادهم غير شرعيين ـ لأن القانون لا يعترف لهم بحق الزواج ـ ويمنع الزنجى من أن يضرب أبيضاً، حتى فى حالة الدفاع الشرعى، وانتهاك شرف زنجية يعتبر عدوانا على مالكها الأبيض، لا على الانسانة التى أصابتها الجريمة!

وقائمة التحريم عجيبة وشاذة.

ممنوع تعليم القراءة والكتابة.

ممنوع سير أو تجمع أكثر من سبعة أشخاص من السود، دون أن يصحبهم سيد أبيض مسلح.

ممنوع التجول بين مساء السبت وصباح الاثنين.

ممنوع الانتقال من مزرعة السيد، إلا بأذن كتابى.

الممنوعات على السود، والحرية للبيض.

والشىء الوحيد الذى حرم منه البيض ــ وهذا نص صريح فى القانون ــ هو تحريم العبيد، حتى لو انتقلواالى الديانة المسيحية!

وبدأت الأغانى الحزينة، والشجاعة، وبدأت حركات العصيان، والاحراق ودس السم ـ أحياناً ـ وأصبحت مشكلة هرب العبيد «أهم» مشكلة يعانيها الاقتصاد الامريكى. حتى أن زنجية فى كارولينا الشمالية هربت ١٨ مرة، وكانت تعاد دائماً الى ضيعة المالك الأبيض.

ونزح الآلاف من الزنوج من الجنوب الى الشمال.

وحين أصدر لنكولن نداء يطلب المتطوعين فى الحرب الأهلية، تقدم الآلاف من الزنوج.

ولكنه رفض هذا التطوع بضغط من جنرالات الاتحاد ومن الكونجرس.

وقال لنكولن انه يخشى قبول الزنوج، فيرفض البيض القتال فى صفهم، حتى فى سبيل قضية واحدة.

وبدأ تحرير العبيد، لأول مرة فى امريكا، كعقاب، للمالك الأبيض الخائن.

يعاقب بتحرير عبيده!

وفكر لنكولن فى إرسال الزنوج الى خارج امريكا: الى افريقيا أو البحر الكاريبى.

ثم فكر فى تعويض الملاك الابيض عن تحرير عبيدهم.

وفى السنة الثانية من الحرب، رأى لنكولن أن تحرير العبيد سيساعد على انهاء الحرب بسرعة. وعرض قرار تحرير العبيد على مجلس الوزراء، فعارضه المجلس، وقرر الانتظار.

وبعد عام آخر، أصدر قراره بأن العبد الذين ما يزالون ثائرين على ملاكهم البيض المعارضين للوحدة الامريكين يكون لهم الحق فى الحرية.

وفى قرار التحرير الأخير، دعا الزنوج الى التطوع لانهاء الحرب.

ومات ٣٨٫٠٠٠ الف زنجي فى سبيل الوحدة الامريكية، أى ما يزيد ٤٠ فى المائة على عدد البيض الذين ماتوا فى سبيل هذه القضية الامريكية الكبرى!

ورغم ذلك العرق فى الحقول، والدم فى الميادين فى حرب الاستقلال والثورة، والموت فى حرب الوحدة، ظهرت جماعة الكوكلوس كلات ـ لأول مرت فى عام ١٨٦٧، تعارض تحرير العبيد بالقتل والارهاب.

***

وبدلاً من أن تحل المشكلة تفاقمت أخطارها.

فقد نزح الزنوج من الريف الجنوبى، الى المدن الشمالية، وبدأت معارك الضواحى فى المدن الصناعية.

ومن هنا نشأت أحياء السود فى كل المدن.

على الأطراف القاصية، وعلى الحدود ـ الشائكة، وبين الفريقين حرب لا تخمد من الكراهية.

وأصبح فصل البيض عن السود هواية كل المشرعين الامريكيين.

حصار السود بالقوانين. وإقفال المساكن والمدارس والمستشفيات والأماكن العامة فى وجه الزنوج.

وكان أعقل الامريكيين البيض، وأكثرهم سماحة يقولون :

ـ إذا أرادوا المساواة، فليتبعدوا وينفصلوا عن البيض فى أحياء مقفلة وخاصة.

وظهرت هارلم فى نيويورك، وهارلم فى كل المدن الامريكية.

وكما يقول أحد الممثلين الزنوج :

ـ المشكلة ليست فى أن المؤلفين البيض يختارون للسود أدواراً محددة بالذات. ولكن المشكلة أصعب من ذلك. لأنهم يختارون طريقة «رد الفعل» التى على الممثل أن يؤديها.

انهم يرسمون دور الزنجى، وكذلك رد فعله أمام الممثل الابيض.

وهكذا أصبحت المشكلة أمام الزنوج ليست فى انعدام المساواة، وانكار الحقوق فقط، بل فى أن البيض يرسمون كذلك طريقة ردود الأفعال التى لابد أن «يختارها» الزنجى.

لكنهم إذا أرادوا أن يحتجوا، فعليهم ان يحتجوا فى طريق محدد مرسوم، هو السعى أمام المحكمة العليا، أو المقاومة السلبية، أو الدعوة الى التطور البطىء والتدريجى.

أى أن البيض يفرضون الظلم ويفرضون وسيلة الاحتجاج على الظلم أيضاً.

وهذا هو أخطر ما فى قصة الزنوج.

وهكذا بعد أن سارت احتجاجات الزنوج فى طريق الثورة والعصيان، بدأت احتجاجاتهم تسير فى الطريق الذى رسمه لهم البيض.

الطريق الديمقراطى، أو السلبى، أو الاحتجاج بالأشعار والأغانى.

وكان أعظم زنجيين فى تاريخ الزنوج، هما دى بوا، أعظم عقلية زنجية، انتهت فى النهاية الى الحياة فى غانا، واكتساب الجنسية الغانية، ودى بوا، هو استاذ نكرومه وازيكوى وغيرهما من زعماء افريقيا.

ثم جارفى الذى كان يدعو الى عودة الزنوج الى افريقيا وليتركوا هذه القارة الامريكية بخيراتها وبيضها ونتوبها.

***

وقد تأكد لى من زيارتى لأمريكا أن قضية تحرير ومساواة الزنوج تلقى من العنف ما يدعو الى التشاؤم.

وأستطيع أن أؤكد ان المجتمع الامريكى خلو من التراث الثورى ـ الذى يقبل فكرة المساواة ويناضل لتحقيقها.

فعلى الرغم من السيئات والفظاعات التى ارتكبتها الرأسمالية الفرنسية، فقد لمست بنفسى أن التقاليد الجمهورية فى داخل فرنسا، قد رسبت فى ضمير الفرنسى العادى ـ حتى أن هذا المواطن يقبل المساواة بين الأجناس كأمر طبيعى.

والمساواة واحترام الحضارة واحترام الجهد الانسانى ليس شيئاً تنص عليه الدساتير.

إنما هو إحساس حضارى يتعمق حتى يصل تحت الجلد كما يقولون. ولابد ان يتنفسه المواطن حتى يصبح أمراً عادياً، بلا تكلف أو تفضل.

ولابد أن يسقط حاجز اللون، وتسقط حواجز التفرقة عموماً، وهذه قيمة حضارية عالية، أظن ان المجتمع الامريكى - بتطوره الرأسمالى، وقيمه ومثالياته لا يهضمها بسهولة.

ولست أظن أن المساواة بين المواطنين شيء تنص عليه الدساتير. فيصبح حقيقة. لأن المساواة لابد أن تكون رمزاً طبيعياً، لأنها أمر طبيعى.

وبمعنى آخر، فان المجتمع الامريكى الذى يقوم على التفرقة الاجتماعية ـ كأساس حضارى يقدسونه باسم الفردية والحوافز والتقدم، لا يمكن أن يهضم التنازل عن تفرقة اللون.

فالذى يهضم تفرقة اللون، إنما يمهد لتفرقة الثروة، وتفرقة الحظوظ والاقدار. وهذا الذى يدافع عن حدود الألوان، إنما يدافع أو يمهد للدفاع عن فوارق الثروات وتفاوت الحظوظ فى الحياة.

وحتى الآن، فان الذى يرسب فى المجتمع الامريكى الرأسمالى ـ تاريخياً ـ هو أن حل مشكلة الزنوج إنما يأتى بالابعاد والاقصاء الى افريقيا مثلا.

وهو ليس حلاً يضم المساواة في داخل امريكا وانما يقبل المساواة على أن تكون بعيدة عن حدود هذه القارة.

والذى رسب في المجتمع الامريكي، هو أن اشتراك العبيد في ثورة الاستقلال، أو حرب الوحدة لا يشفع لهم المطالبة بالمساواة.

فاذا ما تقررت المساواة في الدستور الاتحادى، قامت الكوكلوكس كلان، بالارهاب لمنع تطبيق القوانين.

وإذا ما سألت امريكيا عادياً عن هذه الجماعات الارهابية، وجدته يوافق على وجودها، ضمناً، لأنه يتصور أن هذا الأرهاب هو الذى يحمى البيض من التطرف في المساواة!

وهذه هى نفس الفكرة التى تجعلهم يؤمنون أن البطالة هى الضمان للنظام الاقتصادى، ليكون صحيح البدن قوياً.

والامريكى العادى يؤمن بفكرة التوازن، ولذلك فهو يقيم نظاماً متطرفاً الى اليمين خوفاً من التطرف الى اليسار.

وهذا هو أخطر ما وصل إليه المواطن العادى فى امريكا.

ان يقلب الاوضاع، فيتصور أن التفرقة العنصرية هى شىء طبيعى، لا مدعاة للاحتجاج عليها، واذا كان لابد من الاحتجاج، فليكن احتجاجاً هادئاً، وتطوراً بطيئاً «على الطريقة الامريكية»!.

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٨١١٩/ ١٩٩٦

ISBN 977- 01- 4900 - 4



مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه واحد
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب